دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الازدهار الاقتصادي ودوره في التطور العمراني والتركز السكاني في مدن إفريقية والمغرب الأوسط
القيروان وتيهرت نموذجًا

عبد العزيز رشيد
باحث دكتوراه التاريخ الاقتصادي في المغرب الإسلامي
المدرسة العليا للأساتذة (بوزريعة)
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

شهد المغرب الإسلامي عامة وإفريقية والمغرب الأوسط خاصة ازدهارًا اقتصاديًا ملحوظًا بعد انتهاء ثورات الخوارج بفضل التحكم في تجارة الذهب، ومن نتائج هذا الازدهار الاقتصادي الاهتمام بالعمران والتشييد، وإنشاء مدن جديدة أو تجديد مدن قديمة أصبحت مراكز جذب سكاني كبير خاصة الحواضر الكبرى وعواصم الدول التي اخترنا منها القيروان عاصمة إفريقية وتيهرت عاصمة المغرب الأوسط للدلالة على نموها الاقتصادي وتطورها العمراني واستقطابها للناس من كل الجهات. إن الازدهار الاقتصادي الناتج خاصة عن الدور الهام الذي لعبته إفريقية والمغرب الأوسط في المبادلات التجارية العالمية من خلال تحكّمها في تجارة الذهب بالدرجة الأولى، قد عاد عليها بأرباح طائلة ساعدت على قيام حركة عمرانية واسعة، أدّت إلى إنشاء أو إحياء مدن وحواضر متعددة، اخترنا منها في إفريقية والمغرب الأوسط القيروان وتيهرت، واللتان سرعان ما أصبحتا مدينتي جذب سكاني كبير لما كانت تتوفر عليه من عوامل الاستقرار، ومرافق وإمكانيات مادية ومعيشية تضمن لساكنيها الراحة والحياة السهلة، وظروف ملائمة للتحصيل المعرفي والديني.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٨ سبتمبر ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٠٣ نوفمبر ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
الازدهار الاقتصادي؛ التطور العمراني؛ الاستقطاب السكاني؛ القيروان؛ تيهرت

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.257700

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد العزيز رشيد. "الازدهار الاقتصادي ودوره في التطور العمراني والتركز السكاني في مدن إفريقية والمغرب الأوسط: القيروان وتيهرت نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ١٤ – ٣١.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: rachadachor@hotmail.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

عرفت بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي خاصة ابتداء من القرن (٢هـ/ ٨م) ازدهارًا اقتصاديًا لافتًا نتيجة الحركية التجارية الواسعة التي شملت مختلف السلع الواردة والصادرة من بلاد المغرب، على رأسها الذهب والرقيق. ومن نتائج هذه الديناميكية التجارية تجمع ثروات كبيرة لدى التجار والحكام، فإلى أي مدى ساهم هذا التحول في تفعيل الحركة العمرانية والتي تجلت مظاهرها في تجديد وإعادة بعث مدن قديمة، وإنشاء حواضر جديدة مثل القيروان وتيهرت، وكيف أصبحت هذه المدن تستقطب الناس من كل الأجناس والجهات.

أولاً: الازدهار الاقتصادي ودوره في التطور العمراني في إفريقية والمغرب الأوسط

إن قوة بلاد المغرب والمكانة التي وصلت إليها، وما نتج عنها من تطور في النسيج العمراني من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري (٨ – ١١م) يرتبط وثيق الارتباط بدورها في التجارة الدولية آنذاك، فقد أصبحت تسيطر على تجارة ذهب بلاد السودان الذي لعب دور منشط الدورة الاقتصادية في حوض البحر المتوسط الذي كان محور التبادل التجاري العالمي.[١] بعد انتهاء الصراع المذهبي في بلاد المغرب وما نتج عنه من انعدام للأمن عبر المسالك التجارية وكساد الزراعة والصناعة[٢]، استتب الأمن من جديد عبر المسالك التجارية، واتّضحت معالم الخريطة السياسية لبلاد المغرب والأندلس ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري، فقد أسّس الأمويون خلافتهم الجديدة في قرطبة[٣]، وأسّس بنو مدرار عاصمة إمارتهم الصفرية في سجلماسة[٤]، وأنشأ بنو رستم عاصمة إمامتهم الإباضية في تيهرت، وبعدها الأدارسة أسّسوا دولتهم في فاس[٥]، والأغالبة في القيروان[٦].

ورغم الاختلاف المذهبي فقد اتبعت هذه الإمارات سياسة مسالمة وتجنّبت الأسلوب التوسعي لبسط نفوذها السياسي والمذهبي[٧]، وبهذا عرف المغرب الإسلامي فترة استقرار سياسي امتد إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ساهم في تطور المسالك التجارية وأمنها[٨]. ومما ساعد على الازدهار التجاري الذي عرفته بلاد المغرب هو التحوّل الذي طرأ على المسلك التجاري القديم الخاص بتجارة الذهب والرقيق بين بلاد السودان والمشرق، وخاصةً الطريق التجاري الرابط بين غانة ومصر عن طريق بلاد النوبة،[٩] الذي توقّف بسبب قُطّاع الطرق وكثرة عواصفه الرملية[١٠]، فتواترت الرياح على قوافل التجار وأهلكت الكثير منها، وكانوا يتعرّضون لاعتداءات خارجية، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة،[١١] وأصبح هذا الطريق يمرّ ببلاد المغرب[١٢]. كما أن المسالك وسط المغرب الإسلامي التي نقلت الذهب لم تكن أقل أهمية من تلك التي نقلته غربًا من غانة إلى سجلماسة[١٣].

كان للمدن المغربية دور هام في المبادلات التجارية بينها وبين بلاد السودان بسبب ارتباطها بشبكة من المسالك التجارية، فكانت القيروان بداية الانطلاق، وسجلماسة بوابة بلاد السودان في المغرب[١٤].

وكانت ورجلان أهم محطة في هذا الطريق إذ تعتبر ملتقى الطرق لتجارة الذهب[١٥] حيث كانت تربط بين أهم أسواق المغرب التي كانت تستقبل ذهب السودان كالقيروان وتيهرت[١٦]. وتجمّعت عن طريق التجارة الصحراوية ثروات كبرى من الذهب[١٧] في مدن المغرب ساهمت في تطورها العمراني. ومما ساعد بلاد المغرب على لعب هذا الدور هو موقعها الجغرافي الذي سمح لها بتفتح تجاري وحضاري كبيرين، فمن المعروف أن الحوض الغربي من البحر المتوسط يتّصل بأوسع منطقة جغرافية تشرف على الصحراء، فبعد الواجهة البحرية، توجد الهضاب الفاصلة بين الساحل والصحراء، وكان لهذا الموقع أثر بالغ في تطور المسالك التجارية وتنوعها في كل الاتجاهات[١٨].

وكانت إفريقية وسائر بلاد المغرب تزود المشرق بالمولدات الجميلات، والرقيق، والخصيان السودانيين والصقالبة[١٩]. وفي عهد بني زيري بالمهدية كان الغزو في البحر هو المزود الرئيسي بالعبيد الروم والجواري والخدم[٢٠]. وبازدهار محطّات القوافل التي تقع على طريق تجارة الذهب والرقيق[٢١]، تشكّلت تجمعات سكانية في مختلف مراكز التجارة المؤسسة على طول المسالك التي كانت تربط بين الصحراء جنوبا، وموانئ البحر المتوسط شمالاً من جهة، وبين الصحراء والمشرق الإسلامي من جهة ثانية[٢٢].

ثانيًا: التطور العمراني

كان العالم الإسلامي خلال الفترة ما بين القرن (٢ هـ/ ٨م) والقرن (٥ هـ/ ١١م) مسرحًا لحركة هائلة من العمران وبناء المدن، وقد بدأت هذه الحركة بإنشاء مدن شهدت تطورًا هائلاً سرعان ما أصبح بعضها أكبر مدن العالم آنذاك كبغداد والكوفة، والقيروان، وفاس، وغيرها من المدن التي شيّدت في المشرق الإسلامي أو مغربه، وإلى جانب هذه المدن المستحدثة كان

النشاط ينبعث من جديد في مراكز عمرانية قديمة سرعان ما ازداد عدد سكانها [٢٣]، والفضل في هذا التطور العمراني يرجع إلى الازدهار الاقتصادي والذي ارتكز أساسًا على المبادلات التجارية[٢٤].

وقد ساعد التطور التجاري لبلاد المغرب على قيام مدن استفادت كثيرًا من تجارة الذهب والرقيق[٢٥] مثل وارجلان والقيروان وتيهرت، التي أصبحت مخازن لبضائع بلاد السودان، وهمزة وصل بين مراكز جلب هاتين المادتين وهي السودان الغربي والدول الأخرى التي كانت تشكل مناطق استهلاك للذهب، واستغلال للعبيد خاصة الأوربية الواقعة شمال البحر المتوسط، فكان منطلق هذه التجارة بلاد السودان عبر بلاد المغرب باتجاه صقلية والمشرق الإسلامي من شواطئ إفريقية، أوفي اتجاه الأندلس وأوروبا من سواحل مضيق جبل طارق[٢٦]. إن تجمع الثروات الذهبية في مراكز التجارة الشهيرة ببلاد المغرب أدّى إلى ازدهار عمراني كبير، برز في الفن المعماري وفي الترف الاجتماعي[٢٧]، وكما يذكر ابن خلدون فإنّ البناء واختطاط المنازل إنّما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليهما الترف والدّعة[٢٨]. وهذا التطور العمراني يكون حسب عمر الدولة، فإن كان عمر الدولة قصيرا توقّف العمران عند انتهائها، أمّا إن كان عمرها طويلاً فلا تزال المنازل الرحيبة فيها تكثر وتتعدّد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تبعد المسافة، كما وقع في عدة حواضر كبرى مثل القيروان والمهدية وتونس وتيهرت وغيرها.[٢٩]

تميّزت المدن المغربية عند تأسيسها بالبساطة، لكن ابن خلدون يُقرّ في المقدمة أنّ من خصوصيات المدينة في الإسلام تكون بسيطة في بدايتها الأولى لالتزامها بالسنّة والدين، لكنّها لا تظل كذلك إذ سرعان ما يتسرّب إليها الترف، وهو ما يفسّر تطور مظاهرها العمرانية[٣٠]. يقول ابن خلدون: «اعلم أن الأمصار إذا اختطّت أوّلا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما، ممّا يعالى على الحيطان عند التأنّق كالرّخام والزّجاج والفسيفساء ...فيكون بناؤها يومئذ بدويا فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات ..وكثرت الصنائع إلى أن تبلغ غايتها »[٣١].

ثالثًا: نماذج مدن في إفريقية والمغرب الأوسط تطورت عمرانيًا بفضل الازدهار الاقتصادي

١/٣-تعريف المدينة

مدن بالمكان أقام به، وفلان مدّن المدائن، أي مصّر الأمصار. والجمع مدائن ومُدُن[٣٢]. ومدّن المدائن معناه بناها، وتمدّن، عاش عيشة أهل المُدن وأخذ بأسباب الحضارة، والمدنيّة هي الحضارة واتّساع العمران، والمدينة المصر الجامع[٣٣]. عرفت أغلب الحضارات الظاهرة المدينية، ولم تستثن منها الحضارة العربية الإسلامية. وقد ورد لفظ المدينة في عدّة مواضع في القرآن الكريم، مفرد أو مثنى أو جمع إحدى وثلاثين مرة، منها قوله تعالى: "قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هُذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"[٣٤]. وقد ركّزت كتب الجغرافيين على تاريخ المدن، ويعود ذلك لاهتمامهم بالجوانب الحضارية ومراكز السلطة السياسية، ومحاور الجباية، ونقاط الدفاع والحرب، ومنابر الدين، والتجمّع السكاني، وكل ذلك يجتمع في المدن[٣٥]. وترسّخت دعائم المدينة مع تمصير المدن الأولى سواء في المشرق أوفي المغرب[٣٦].

وقد استخدم العرب صيغ مختلفة لتعريف للمدينة منها: المصر، وطن، بلد، حصن، حاضرة[٣٧]. وانطلاقًا من وظائفها الأساسية التي برزت في الأمصار الأولى، ومن الإرث المديني للحضارات القديمة، حدّدها الجغرافيون العرب بكونها تجمع للحضر محاط برستاق[٣٨]، وقائم على وجود مؤسسات، أهمها السوق والمنبر، أو المسجد والحمام، وهي بذلك تتميّز عن القرية التي لا تتوفر فيها كل هذه العناصر مكتملة، وتتميز المدينة بمواصفات حضارية، وهذا ما يؤكده القزويني: «عند حصول الهيأة الاجتماعية لو اجتمع البشر في الصحراء لتأذّوا بالحر والبرد والريح، ولو تستّروا في الخيام.. ولم يأمنوا مكر اللصوص والعدو.. فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار»[٣٩]، غير أنه ليس من السهل التفرقة بين المدن الكبيرة والصغيرة في كتب المسالك والرحالة[٤٠].

وحدّد بعض الباحثين المدينة انطلاقًا من عدة معايير، أهمها اتساع السور، وأهمية عدد السكان، وتعدد الوظائف[٤١].وأُطلقت تسمية المدن الكبيرة على المستقرات التي فاق عدد سكانها عشرة آلاف نسمة، وهي في الغالب حواضر وعواصم الدول[٤٢]. ومن المقاييس التي وُضعت لنشأة المدينة العربية المقياس الإنشائي، حيث أن توفُّر المعطيات الجغرافية

الملائمة مثل الموقع وتوفر المياه والأراضي الزراعية، ساعد على بروزها وتطورها، وساعد الأمير أو السلطان على إنشائها بطريقة إرادية، فيختار موقعها ويشرف على تخطيطها، وهذا حال القيروان،[٤٣] وتيهرت،[٤٤] وبجاية،[٤٥] والمهدية، [٤٦] وهي مدن مستحدثة. ثم المقياس الزمني إذ فرّقت كتب المسالك بين صنفين من المدن، القديمة أو الأزلية أو مدينة الأول، وشهدت مراحل تجديد وتعمير في العصر الوسيط، مثل تونس التي كانت تُعرف باسم ترشيش.[٤٧] وثمّة مقاييس أخرى مثل المقياس الوظيفي، كأن تكون المدينة ذات طابع عسكري (رباط) مثل رباط المنستير بإفريقية[٤٨]، أو اقتصادي أو ثقافي، أو ديني كالمراقد المُقدسة للأئمة التي اتخذت كنواة لمدن دينية مثل كربلاء بالعراق.[٤٩]

٢/٣-الازدهار الاقتصادي والتطور العمراني في القيروان

بناها عقبة بن نافع[٥٠] سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م على بعد ستة وثلاثين ميلاً[٥١] (حوالي ٥٤ كلم) من البحر المتوسط، ونحو مائة ميل (حوالي ١٥٠ كلم) من تونس[٥٢]، وسوّر المدينة بسور بناه كُلّه بالآجر[٥٣]. عرفت المدينة تطورا عمرانيا سريعا بعد مُدّة قصيرة من تأسيسها[٥٤]، فلم يمر نصف قرن على نشأته>ا حتى أصبحت أعظم مدينة بالمغرب[٥٥] وأم القرى[٥٦]، واعتبرها الزهري من قواعد الإسلام الأربعة وهي بغداد، القاهرة، وقرطبة[٥٧] بفضل ازدهارها الثقافي والعلمي[٥٨]، كما يقول عنها الحميري: «والقيروان دار الملك، ورأت من الممالك والملوك والدول والفقهاء والعلماء والصالحين مالم يكن مثله في قطر من الأرض»[٥٩]. ولمّا أظلّها القرن الثاني الهجري تطوّرت القيروان وتبّحر عمرانها على عهد أمراء بني الأغلب[٦٠].

وقد ساعد مركزها السياسي والديني وموقعها الجغرافي على المسلك الرئيس بين الأندلس والمغربين الأوسط والأقصى من جهة، والمشرق الإسلامي وموانئ المدن التجارية الواقعة على شواطئ إفريقية، من جهة ثانية على سرعة التطور العمراني لتصبح مركزًا حساسًا ونشطًا في الدورة الاقتصادية المغربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة[٦١]. وفي هذا الصدد يقول الزهري: «القيروان مدينة عظيمة جمعت بين طيب الهواء وعذوبة الماء وجميع المحاسن»[٦٢]، حتّى أضحت أجل مدينة بأرض المغرب[٦٣]، وشدّ الناس إليها الرحال من كل أفق [٦٤]، لكن العامل الأساسي الذي استفادت منه المدينة في حياتها العمرانية منذ مطلع القرن الثالث هو التحوّل الجذري الذي عرفته الحياة الاقتصادية المغربية نتيجة تطور التجارة الصحراوية وتدفّق البضاعتين الثمينتين الذهب والرقيق من بلاد السودان إلى مراكز التجارة المغربية، فبعد أن تخلّت مصر عن الطريق الذي يربطها بغانة أصبح من الضروري أن تمر القوافل بالقيروان ثم تيهرت إلى غاية سجلماسة، آخر محطة مغربية نحو أرض السودان. وبتطور الحركة العمرانية بالقيروان أصبحت أهم مدينة في المغرب لتتحوّل بعد ذلك إلى مركز السلطان وأحد الأركان[٦٥]، عاصمة سياسية لثلاث دول في المغرب الإسلامي خلال القرون الوسطى (الأغلبية، الفاطمية، الصنهاجية)[٦٦].

وقد عرفت القيروان حركة تبادل تجاري في أسواقها جمعت بين بضائع التجارة الصحراوية، لا سيما الذهب والرقيق، من خلال علاقتها الوطيدة مع سجلماسة[٦٧]، وبضائع غذائية أساسية مثل الحبوب والزيت والتمور[٦٨]وغيرها ممّا جعلها فرضة المغربين ومتجر البحرين[٦٩]، وأحسن مدن المغرب أسواقًا[٧٠] وأربحها تجارة وأيسرها أموالاً وأكثرها جباية[٧١].

واعتمدت هذه الحركة التجارية على عملة قوية، حيث حرص أمراء بني الأغلب على وضع عملة جيدة، ثم جاء بعدهم الفاطميون الذين سيطروا على مسالك تجارة الذهب من الجريد إلى سجلماسة حيث خرج منها المهدي بأحمال من التبر[٧٢]،ممّا سمح لهم بدعم قوة العملة بالقيروان رغم سنوات القحط الموسمية والأحداث السياسية والعسكرية التي عرفتها المدينة خلال القرنين الثالث والرابع، وعلى الرغم من السياسة الجبائية الثقيلة التي وضع أسسها الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي، وانتفاضة صاحب الحمار، وما أدّت إليه من وضع اقتصادي ومالي متأزم في إفريقية[٧٣].

ساد في القيروان نوعان من التجارة، تجارة محلية بين المدينة والمدن والقرى القريبة منها حيث كانت تجتذب وتُوزّع المنتجات الواردة سواء من الساحل أو من الجريد[٧٤]، وتجارة كبرى تقوم على نشاط قوافل توريد البضاعة إلى المدينة وتصديرها منها، والتي أكسبت أسواقها نشاطا تجاريا دائما، وهي التي تكمن وراء مظاهر الثراء في المدينة وتجمُّع الثروات المالية لدى بعض الفئات الاجتماعية، وفي طليعتها فئة التجار[٧٥].

كانت القيروان تُمثّل نقطة الانطلاق في طريق المسالك التي تمُرّ بها القوافل التجارية التي تجوب مناطق بلاد المغرب في اتجاهات مختلفة، وبقيت تحتل هذه المكانة منذ تأسيسها إلى سقوطها في منتصف القرن (٥ هـ/ ١١م) بعد أن خربها الأعراب.[٧٦] أمّا على المستوى الخارجي فإنّ الأمر الجديد الذي اكتسب أهمية خلال القرن الثالث الهجري، أي بعد فتح صقلية

وسيطرة الأسطول الأغلبي على المنطقة الغربية من حوض البحر المتوسط، هو التبادل التجاري بين إفريقية من جهة والمشرق الإسلامي والأندلس وصقلية من جهة أخرى[٧٧]، وقد تطورت حركة التنقل التجاري البري والبحري معا، وكانت القيروان نقطة لقاء بين المغرب والمشرق، وبين التجارة المتوسطية وقوافل التجارة الصحراوية[٧٨].

إن الإشارات المشتّتة هنا وهناك في كتب المصادر إلى أحياء القيروان ودروبها وفنادقها ومساجدها، تعطي فكرة واضحة عن أهمية التقدم العمراني الذي عرفته المدينة فيذكر ابن الأثير مقدار مساحة القيروان بعد إتمام بنائها «دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع»[٧٩]. وإذا كان مقدار الباع يتراوح ما بين متر ومترين، فتكون بذلك مساحة المدينة ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف و٦٠٠ متر، أي أكثر من أربعة كلم مربع. وقد بلغ طول الشارع التجاري الرئيس بالقيروان، وهو الذي يُعرف بسماط سوق القيروان، وهو عبارة عن شارع كبير مصطفّة حوانيته على اليمين وعلى الشمال، والذي كان يمتد من باب تونس شمالاً إلى باب أبي الربيع جنوبا، بلغ طوله ميلين غير ثلث[٨٠]، أي ما يزيد عن ثلاثة كلم ونصف، هذه المساحة تجعل القيروان من السعة بالقدر الكبير[٨١]، ويصفها الجنحاني بأن شوارعها الرئيسية تمتاز بالاتساع إذا ما قورنت بالعواصم الإسلامية القديمة[٨٢].

كما شُيّدت بالقيروان بنايات عظيمة، أوّلها المعالم الدينية، كالمساجد والجوامع والمصليات، فكان بها زهاء ثلاثمائة بيت يُعبد فيها الله، أشهرها على ترتيب قدمها وأهميتها[٨٣] الجامع الأعظم المنسوب إلى الصحابي عقبة بن نافع[٨٤]، وكان قائمًا على أعمدة عجيبة من المرمر، اثنان منها قرب المحراب، ارتفاعهما لا يتصوّره العقل، كما يذكر حسن الوزان[٨٥]، وكانت له عشرة أبواب[٨٦]، وطوله مائة وعشرون ذراعًا[٨٧]، وعرضه مائة وخمسون ذراعا، وعدد ما في الجامع من أعمدة أربع مائة وأربعة عشر عمودًا، وبلغت النفقة في بنائه ستة وثمانين ألف مثقال[٨٨]. إلى جانب بناء المنازل وتوزيعها على السكان[٨٩]. وربّما يتبادر للذهن أن لفظة (مسجد) تدلّ على أماكن العبادة الصغيرة، لكن الحقيقة أنها كانت عظيمة تتخذ في غالب الأوقات كمدارس، تدرس فيها شتى أنواع العلوم الدينية، وتسميتها بالمساجد هو تعريف قديم كان يطلق على الجامع والمسجد على حدّ سواء كقولنا المسجد الحرام والمسجد الأقصى وهلّم جرا[٩٠].

وإلى جانب المساجد وأماكن العبادة، فقد حظيت القيروان كمدينة عاصمة للإقليم بالحمامات والمستشفيات والمتنزهات، وكل المرافق ذات النفع العام، وما من شأنه تحسين حالة الشعب المادية، شأن كل أمة تمكّنت منها الحضارة،[٩١] حيث بلغ عدد الحمامات أربعة وثمانين حمّاما عموميا، إلى جانب الحمّامات الخاصة[٩٢]. وهذا دليل على كبر مساحة المدينة واتساعها[٩٣]. كما كان فيها مستشفيات لمعالجة المرضى، وقد أُقيم خارجها مستشفى عظيم يُسمّى (الدمنة) كان يتكوّن من عدة أقسام.[٩٤]

وقد عرفت القيروان توسعًا كبيرًا في عهد الأغالبة (١٨٤ – ٢٩٧هـ/ ٨٠٠ – ٩٠٩م)، ثم الفاطميين (٢٩٧ – ٣٥٩هـ/ ٩٠٩ – ٩٦٩م) حيث أُقيمت حولها وقريبًا منها ثلاث مدن كانت مقرا للحكام وأعوانهم، وقد ازدهرت هذه المدن ازدهارًا عظيمًا، كما أن بعضها قد نُقلت إليه أسواق القيروان[٩٥]، ففي سنة (١٨٤ – ١٨٥هـ/ ٨٠٠ -٨٠١م) بُنيت في الجهة الجنوبية الشرقية العباسية أو القصر القديم على يد إبراهيم بن الأغلب ،وهي عبارة عن مدينة جديدة كبيرة كان لها خمسة أبواب، وجُهّزت بفنادق وحمامات وأسواق ،وشُيّد فيها مسجد وملعب لرياضة الخيول[٩٦]. وفي سنة (٢٦٣ – ٢٦٤هـ/ ٨٧٦ – ٨٧٧م) شيّد إبراهيم بن أحمد بن الأغلب مدينة رقادة[٩٧] في الجنوب الغربي من القيروان التي يبلغ قطرها أكثر من عشرة كلم[٩٨]، دليل على اتساع المدينة وكثرة سكانها. وفي سنة (٣٣٧ – ٣٣٨هـ/ ٩٤٨ – ٩٤٩م) أنشأ الفاطميون مدينة صبرة المنصورية شرق القيروان، وأصبحت دار ملكهم،[٩٩] كانت شديدة العمارة، وعرض سورها إثنا عشر ذراعا[١٠٠]، توجد به خمسة أبواب، وكان دخل كل باب منها ٣٦ألف درهم من الرسوم والمكوس في اليوم[١٠١].

وتم إنشاء هذه المدن نتيجة لتضخم العاصمة واتساعها وكثرة سكانها[١٠٢]. وكان فيها أيام عمارتها ثلاثمائة حمام[١٠٣]، ممّا يدل على اكتظاظها بالسكان، وأحسن من وصف القيروان وما وصلت إليه من ازدهار اقتصادي وتطور عمراني وغنى مادي ونمو سكاني، الإدريسي، إذ يقول عنها: «أم الأمصار، وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطرا، وأكثرها بشرًا، وأيسرها أموالاً، وأوسعها أحوالاً، وأربحها تجارة وأكثرها جباية وأنفقها سلعة وأنماها ربحًا».[١٠٤] وهكذا أصبحت القيروان تمثل بالنسبة لبقية المغرب نموذج المدينة الإسلامية في ازدهارها الاقتصادي والحضاري، وتطورها العمراني السريع.[١٠٥]

٣/٣-الازدهار الاقتصادي والتطور العمراني في تيهرت

تقع في سفح جبل يقال له جزول. اختار عبد الرحمان بن رستم مكان بناء عاصمته تيهرت لعدّة اعتبارات منها توفر المياه، حيث تقع بين نهرين أحدهما اسمه مينا يقع في غرب المدينة والثاني يُدعى تاتش يقع في شرقها[١٠٦]. وبسبب قربها من السهول الصالحة للزراعة وبرودة مناخها[١٠٧]بهدف تطوير النشاط الزراعي[١٠٨]، وقد وصف الإصطخري المقومات الطبيعة لتيهرت بقوله «وتيهرت مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه»[١٠٩].

كما أنّ موقع تيهرت على طريقين من أشهر الطرق التجارية في ذلك الوقت، الطريق الرابط بين المشرق والمغرب الأقصى والطريق الرابط بين الشمال والجنوب، جعلها مركزًا تجاريًا هامًا وإحدى المحطات الاقتصادية الكبرى في العالم حيث أن المسالك التجارية كانت تتصل بتيهرت، إذ كانت تربط بين مسالك الصحراء وبلاد السودان على وجه الخصوص بالمناطق الشمالية خاصة الأندلس عبر مسلكين رئيسيين، الأول ينطلق نحو الغرب في اتجاه جاو ثم سجلماسة[١١٠]مرورًا بتاغازة[١١١]ثم أودغشت، وأخيرًا غانا[١١٢]، أما المسلك الثاني فهو الذي يتوجه دائمًا نحو جاو، لكن هذه المرة مرورًا بورجلان وتادمكة عبر الهوقار، وتعتبر ورجلان أهم وأقرب محطة لتيهرت[١١٣].كما كان لها اتصال بالمشرق عن طريق الصحراء مرورًا بالقيروان، وطرابلس ومصر[١١٤]، وقد ساعد هذا الموقع الاستراتيجي الذي احتّله تيهرت في أن تلعب دورا هامّا في التجارة الدولية. يقول ابن الصغير عن الرستميين: «واتّسعوا في البلد، وتفسّحوا فيها، وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار، واستعملت السبل إلى بلد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة»[١١٥].

وهكذا أصبحت البضائع تُصدر من تيهرت وإليها برًا وبحرًا، غربًا وشرقًا[١١٦]، شمالاً وجنوبًا، فكانت تأتيهم بضائع الأندلس، والمغرب الأقصى، والسودان الغربي[١١٧]، وإفريقية، ومصر، وبلاد المشرق عامة، وكانت تخرج منها السلع المختلفة من خلال عدة موانئ على ساحل البحر المتوسط،[١١٨] مثل مرسى فروخ[١١٩] القريب من مستغانم، ومرسى الدجاج[١٢٠]، وتنس وغيرها من موانئ المغرب الأوسط. وكانت أشهر السلع التي نقلها الرستميون من بلاد السودان الذهب الذي يُعاد تصديره إلى مختلف الأمصار[١٢١]، وأيضًا العبيد والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات، مقابل ما يبيعونه هناك من المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والمواد الزراعية[١٢٢].

وقد حقّق الرستميون أرباحًا طائلة من خلال اشتغالهم بالتجارة، من بينهم الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم (١٧١ – ٢١١ هـ/ ٧٨٧ - ٨٢٦م) الذي اشتغل بالتجارة قبل توليه الإمارة، واتسعت تجارته مع بلاد السودان والحجاز واليمن والبصرة وغيرها من بلاد المشرق[١٢٣]، إلى درجة أنّه واثنين من أغنياء تيهرت كانوا يملكون من الأموال ما لا حد له، حيث كان الإمام عبد الوهاب يملك الذهب والفضة، والثاني واسمه محمد بن جرني كان فلاّحا عظيما، قُدّرت زكاته في السنة آلاف الأحمال من البر والشعير، وقيل أندر زرعه ترى مسافة أيام كالجبال، بينما كان الثالث ويعرف بابن زلغين يملك من الإبل والغنم مئات الألوف .وهذا ما يشير إليه الإمام عبد الوهاب بقوله «لولا أنا ومحمد بن جرني وبن زلغين لخرب مال المسلمين، أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وبن زلغين بالأنعام»[١٢٤]. ورغم ما يبدو من مبالغة في الروايات التي ساقت هذه الأمثلة عن الغنى الذي وصل إليه الإمام عبد الوهاب وبعض أثرياء تيهرت، ودورهم في الازدهار الاقتصادي للمدينة وللدولة الرستمية عامة، إلاّ أنه ممّا لا شك فيه أن المصادر تؤكّد الدرجة الاقتصادية العالية التي وصلت إليها تيهرت حتّى سميت بعراق المغرب[١٢٥].

وكان للازدهار الاقتصادي الذي بلغته تيهرت في العهد الرستمي الفضل في تطور المدينة عمرانيا، فبعد عودة إباضية المشرق لتقديم المعونة المالية الثانية لعبد الرحمان بن رستم لاحظوا تغيّرا ملحوظًا على تيهرت، فعمارتها كانت زائدة[١٢٦]، ولاح عليها رونق المدينة والملك[١٢٧]، فأوّل ما بُني فيها المسجد الجامع، ثم انتشرت حوله الدور والبيوت والأسواق والفنادق التي كانت أماكن إقامة للتجار الوافدين من المناطق القريبة أو البعيدة، وتفنّن أهل تيهرت تدريجيًا في عمارتها وتنظيمها، وازيّنت بقصور مشيّدة[١٢٨]، ودور مزينة، وأبنية مبهجة[١٢٩] وتوسّعت اتساعًا كبيرًا، وصارت مقصدًا للناس من كلّ الجهات[١٣٠]، والفضل في ذلك يرجع إلى حسن تسيير عبد الرحمان بن رستم للأموال التي جاء بها إباضية المشرق[١٣١]. وفي عهد الإمام الثاني عبد الوهاب أفلح بن عبد الوهاب، حفلت البلاد بأنواع التّجارات التي عادت على النّاس بالأرباح الوفيرة، أنفقوها في البناء والعمران، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنوا القصور والضياع داخل تيهرت وخارجها[١٣٢]. وكان لعجم الفرس دور في إثراء الدولة الرستمية وازدهارها عن طريق التجارة، حتى أن أحدهم[١٣٣] قد ابتنى سوقا تجارية عرفت باسمه، وهي سوق ابن وردة[١٣٤].

ولم تقتصر مظاهر الازدهار على تيهرت بل انتقلت إلى سائر جهات البلاد فنالت القبائل حظّها من الثروة، وظهرت عليها آثار الرخاء، يقول ابن الصغير «وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم»[١٣٥].

رابعًا: الازدهار الاقتصادي والتطور العمراني ودورهما في التركز السكاني المديني

من نتائج الازدهار الاقتصادي الذي شهدته إفريقية والمغرب الأوسط خلال القرون الإسلامية الأولى، بروز حركة عمرانية واسعة سمحت بإنشاء عدة مدن أضحت البعض منها من أهم الحواضر، وهذا ما جعلها منطقة جذب سكاني كبير بسبب ما أصبحت تتوفر عليه من ظروف معيشية ملائمة للاستقرار البشري.

٤/١-إشكالية المسألة الديمغرافية في المصادر

إن المسألة الديمغرافية في العصر الوسيط لا تخلو من صعوبات حتى أن الباحث فيها يكاد يُنعت بالمغامر الذي يخاطر بنفسه في بحر متلاطم الأمواج[١٣٦]، من هنا يوصف الموضوع بالمشكلة لصعوبة حلّها إلى يومنا هذا[١٣٧]، حيث يواجه الباحثون المختصّون في دراسة التاريخ الديمغرافي لشعوب العالم صعوبات كثيرة، وشكوكًا خاصة بالنسبة للعصور الوسطى بسبب نقص المصادر التي تتناول هذا الموضوع[١٣٨]، لهذا فمن أكبر التحديات التي تواجه الباحث في هذا المجال هو محاولة معرفة التطورات التي شهدها النمو السكاني لمنطقة ما خلال عدة قرون، والعوامل المؤثرة في هذه الزيادة الديمغرافية أو نقصانها، خاصة إذا كانت هذه المنطقة معروفة بافتقارها للوثائق التاريخية التي تتضمن أرقامًا وإحصائيات عن عدد السكان[١٣٩]، وهذه الحالة تنطبق كثيرًا على شمال إفريقيا أو بلاد المغرب في العصر الوسيط[١٤٠]، فإعادة تشكيل التطور التاريخي للسكان فيها تعاني من نقص كبير في الإحصائيات الديمغرافية الدقيقة، بسبب مرحلة طويلة من الفراغ الديمغرافي خلال الألفية الثانية للميلاد[١٤١]، لكن معظم المواضيع المطروحة على البحث التاريخي اليوم.

لكن الخوض في هذا الموضوع لا يعني الدخول في افتراضات سهلة، بل لا بدّ من محاولة الاستغلال المتبصر لأدنى الإشارات والأرقام الواردة في مختلف المصادر[١٤٢]. وللأسف فإن البحث في مجال الديمغرافيا التاريخية[١٤٣] لبلاد المغرب في العصر الإسلامي[١٤٤] لا يبعث على الاطمئنان، لأن معظم الوثائق الخاصة بتاريخ المنطقة لا تتضمّن سوى نصوص قليلة لا تساعد على إعطاء صورة واضحة عن عدد السكان[١٤٥]. كما تتميّز معظم روايات المؤرخين والجغرافيين بالطابع التعميمي، ولذلك فإن تقديم أي رقم ولو تقريبيًا لا يخلو من مجازفة[١٤٦]، فابن خلدون مثلاً كثيرًا ما يستعمل على غرار الإخباريين في تاريخ الإسلام عبارات وصفية ذات دلالة ديمغرافية غامضة غالبًا ما تفيد الكثرة، أو ينتابها الشك، ويغيب عنها اليقين، من تلك العبارات (أمم لا تحصى)، (يُقال أن)، أو (نحو ذلك)[١٤٧]، ويصف ابن حوقل البربر من سكان المغرب بأنهم قبائل لا يلحق عددهم ولا يوقف على آخرهم لكثرة بطونهم وتشعّب أفخاذهم وقبائلهم[١٤٨]. وأحيانًا تكون العبارات المستعملة ذات دلالة تفيد القلة، حيث يصف الإدريسي- القيروان بعد الغزو الهلالي أنّ بها قوم قليلون[١٤٩]، لذلك فإن المختصّين يرون أن الحل الأنسب لمشكلة نقص المعلومات عن الأوضاع الديمغرافية للمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، يكمن في الاستشهاد بالنصوص التاريخية التي لها علاقة بأعمار الدول، وأهم التطورات التي تمر بها من حيث أسباب نشأتها أو سقوطها واضمحلالها، والمراحل التي تمر بها[١٥٠].

ممّا لا شك فيه أن الوضعية الديمغرافية ارتبطت بالواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للشعوب، فالازدهار الاقتصادي وتحسّن المستوى المعيشي، وشيوع الأمن وغياب الفتن والحروب، عوامل تساعد على الزيادة السكانية نتيجة نقص الوفيات وزيادة الولادات، وتكون سببًا في تطور ديمغرافي ملحوظ مثلما حدث في بداية الفتح الإسلامي بعد انتهاء ثورات الخوارج، وعند قيام الدول والإمارات في إفريقية والمغرب الأوسط مثل دولة الأغالبة، والرستميين، والحماديين، أو غيرها من الدول التي قامت في المنطقة. يقول ابن خلدون «اعلم أن الدّولة في أول أمرها لابد لها من الرفق في ملكتها، والاعتدال في إيالتها.. وإذا كانت المملكة رفيقة انبسطت آمال الرّعايا، ونشطوا للعمران وأسبابه فتوفّر ويكثر النسل.. ويظهر أثر ذلك بالتدريج»[١٥١].

فاستقرار الأوضاع بالنسبة للشعوب والرعية، وحسن سيرة الحكام معهم، والاهتمام بشؤونهم، والرفق بهم، ورفع مستواهم المعيشي- هي كلّها عوامل تؤدي إلى الزيادة السكانية في أي مجتمع من المجتمعات، وهكذا كما ذكر ابن خلدون بعد جيل أو جيلين من حسن السياسة والرأفة بالرعايا يزدهر العمران والصنائع والاقتصاد ويكثر النسل، وترتفع الولادات بالتدريج[١٥٢]، بينما أسفرت الحروب والفتن، والمجاعات

والكوارث الطبيعية، وسوء استغلال السلطة عن نقص خطير في عدد السكان[١٥٣]، حيث تدخل الدولة في الجيل الثالث والأخير من عمرها بسبب ما يسمّيه ابن خلدون الحضارة المفسدة للعمران، فترتفع الجبايات والضرائب لسد نفقات حياة الترف التي ينغمس فيها أمراء الدولة والحاشية المقربة منهم والأغنياء خاصة من سكان المدن، فتصبح هذه الضرائب الثقيلة سببًا في تقاعس الناس عن العمل والإنتاج[١٥٤]، وتكون نتيجة ذلك حدوث المجاعات والأوبئة، وترتفع الوفيات بسبب كثرة السكان من جهة، والكوارث الديمغرافية الناتجة عن اختلال الدولة، واندلاع الفتن الممهّدة لسقوطها من جهة أخرى.[١٥٥]

كما أنّ انتقال الناس من حياة البداوة إلى حياة التحضر داخل المدن ينتج عنه توفّر الظروف المعيشية الرغيدة وظهور حياة الترف ممّا يزيد في النمو السكاني، وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله أن «القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد.. وربت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا عددا إلى عددهم»[١٥٦]. ويقول في موضع آخر «لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر. فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون مثلما حدث في بجاية»[١٥٧]، أي يزداد عددهم.

٢/٤-التعرّف على الوضعية الديمغرافية من خلال تاريخ المدن

من أجل التعرف على الوضعية الديمغرافية لإفريقية والمغرب الأوسط خلال المرحلة المدروسة، لابُدّ من الرجوع إلى تاريخ المدن والحواضر الإسلامية التي أُنشئت في المنطقة كالقيروان، وتيهرت لأن المصادر التاريخية كما أسلفنا ركّزت على وصف الحياة في المدن أكثر من تركيزها على الأرياف[١٥٨]. نادرًا ما نجد أرقامًا محدّدة في المصادر عن عدد السكان في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، مثلما أورد الإدريسي عندما يتكلم عن كتامة[١٥٩] «ولم يبق من كتامة في وقت تأليفنا لهذا الكتاب إلاّ نحو أربعة آلاف رجل»[١٦٠].

يرى هشام جعيط أن عدد العرب المستقرين في بداية الفتح لا يمكن أن يتجاوز الخمسين ألف شخص، وفي العهد الأموي ثم العباسي كانت مراكز التجمعات الأكثر أهمية هي القيروان، وتونس والزاب، ومن الطبيعي أن يستقر في عاصمة الولاية عدد كبير من العرب من مختلف القبائل، وتركزت موجة ثانية خلال العهد العباسي في تونس وبلاد الزّاب خاصة[١٦١].

لكن ممّا لا شكّ فيه أن المدينة أصبحت منطقة جذب للسكان في بلاد المغرب عامة، فالمدن التي عرفت ازدهارًا اقتصاديًا يلفت الانتباه ابتداء من القرن (٢ هـ/ ٨م)، صارت تستقطب الأثرياء من البادية الذين تستهويهم حياة التّرف والرفاهية، وتوفّر الكماليات فيها، ويمثّل هؤلاء الوافدين الأغنياء نسبة كبيرة من سكّان المدن التي نشأت صغيرة ثم تطورت في القرنين (٣ - ٤ هـ/ ٩ - ١٠م)[١٦٢]. وتكون المدينة أكثر جذبا للسكان خاصة من البادية إذا كانت عاصمة دولة جديدة مثل القيروان[١٦٣] بعد تأسيسها وأصبحت عاصمة لإفريقية، وجذبها للسكان من الجهات القريبة أو البعيدة، وتيهرت لما عُرف عنها من تسامح مع أتباع المذاهب وحتى الأديان الأخرى، وتحوّلها إلى قطب اقتصادي كبير في بلاد المغرب[١٦٤]، لما تتوفر عليه هذه الحواضر الكبرى من إمكانيات وظروف اقتصادية واجتماعية، واستتباب أمني، كلّها عوامل ساعدت على الاستقرار البشري فيها.

وإذا كان تدفّق الناس في إفريقية والمغرب الأوسط على المدن، وانتقالهم إليها بصفة مؤقتة لتلبية احتياجاتهم والحصول على ما يلزمهم من سلع وبضائع، أو تصريف سلعهم، مثل المزارعين الذين يأتون إلى الأسواق المقامة داخل المدينة أو خارج أسوارها لبيع منتوجاتهم الزراعية في إطار التبادل المتعارف عليه بين المدينة والبادية، فإن الكثير من الناس يفضّلون الاستقرار فيها خاصة إذا كانت ذات موقع هام مثل التجار الذين يسعون وراء تحقيق الأرباح، وهو ما توفّره لهم المدينة، بالإضافة إلى الحياة المرفّهة داخل القصور وفي المتنزهات.[١٦٥]

وتُعتبر المدينة منطقة جذب سكاني خاصة في مرحلة التأسيس، حيث تكون ورشة بناء من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، وهناك مثل يقول: «إذا كان البناء، كل شيء يكون»، وينطبق هذا المثل على ورشة بناء المدن المغربية التي كانت تجمع آلاف العمال الذين يأتون من كل مكان من أجل البناء السريع للمدينة، في إطار حركة سكان الأرياف نحو المدينة التي هي في طور البناء[١٦٦]. كما قد تكون الهجرة إلى المدينة بدافع طلب العلم أو نشره [١٦٧] مثل القيروان التي أصبحت قطبا علميا هامّا ليس في بلاد المغرب فقط بل في العالم الإسلامي ككل، وذلك بفضل استقرار العديد من فقهاء الصحابة والتابعين بها، وكانت تيهرت عاصمة المذهب الإباضي تجذب أتباع الإباضية من مختلف الأمصار لتعلّم أمور دينهم، وأصول المذهب الإباضي[١٦٨].

والخلاصة أن تعمير المدينة يكون بواسطة حركة بشرية ذات اتجاه واحد، من البادية إلى الحاضرة لأن التمدن غاية البدوي[١٦٩]، بينما لا يتشوق الحضري إلى السكن والاستقرار في البادية، إلا لضرورة تدعو إليها. ويشمل النزوح البدوي الذي يغذي الديمغرافية داخل المدينة، ويزيد من عدد سكانها عبر موجات متتالية كلا من الناحية القريبة من المدينة، والبادية البعيدة عنها، وهكذا يقع تجديد متواصل للتركيبة البشرية بالحواضر عن طريق هذا المعين الذي لا ينضب.[١٧٠] ومن حسن الحظ أن المصادر الوسيطية تختزن بين طياتها بعض الإشارات الإحصائية والتقديرات اللفظية[١٧١] عن عدد السكان في المدن، من خلال عدد الأسواق والفنادق، والمساجد، وغيرها من المرافق العمومية، مما يمكن اعتباره مؤشرات، إذا تم ضبطها وإخضاعها للنقد التاريخي، يمكن القول إنه يمكن الاقتراب أكثر من وضع آليات إن لم نقل منهجية للبحث في الديمغرافية التاريخية.

(٢/٤) ١-الزيادة السكانية في القيروان

عرفت القيروان تطورًا عمرانيًا سريعًا[١٧٢] بعد مدة قصيرة من تأسيسها[١٧٣]، فلم تمض سوى مدة قصيرة على اختطاط عقبة لمسجدها الجامع ودار الإمارة حتى أخذ الناس في بناء الدور والمساكن والمساجد[١٧٤]، ويعود إليه الفضل في عملية التمصير واستقرار الجنود بعائلاتهم في المساكن، وكذلك التخطيط أو تحديد النواة العمرانية والخطط الجماعية للقبائل.[١٧٥] وتذكر كتب الطبقات أن إفريقية عامة والقيروان على وجه الخصوص دخلها تسعة وعشرون أو ثلاثون صحابيا من صحابة رسول الله (ﷺ)، منهم من مكث في إفريقية وبعضهم عاد بعد انتهاء الغزوة التي شارك فيها[١٧٦]. كما يُذكر أن عقبة بن نافع كان معه عندما عاد للمرّة الثانية خمسة وعشرون صحابيًا، وقد جمع وجوه أصحابه وكبراء العسكر فدار معهم حول القيروان وهو يدعو «اللهمّ املأها علما وفقها، وأعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزا لدينك وذُلاّ على من كفر، وأعزّبها الإسلام، وأمنعها من جبابرة الأرض»[١٧٧].

ثم ظهرت طبقة من أبناء القيروان سافروا إلى المشرق ونهلوا من شتى العلوم وعادوا إلى بلادهم وحملوا على عاتقهم نشر ما تعلّموه في القيروان وغيرها من مدن إفريقية وبلاد المغرب عامة[١٧٨]. وقد أقبل الناس على القيروان من كل جهات المغرب لتعلّم أمور دينهم من الصحابة والتابعين وأبناء القيروان العائدين من المشرق، فأصبحت قبلة لطلاب العلم من شتى الأقطار[١٧٩]. ومن نتائج قيام القيروان، إقبال كثير من الأمازيغ على اعتناق الإسلام، وجاوروا المدينة الجديدة، ثم نمت وتوسّعت في عهد ولاّة إفريقية خاصة حسان بن النعمان وموسى بن نصير[١٨٠](١٩ – ٩٧ هـ / ٦٤٠ – ٧١٦ م)، فبعد أن أقام بها حسّان مدّة شرع في تعميرها ،حيث أعاد بناء المسجد الجامع وقصر الوالي، وبعث الراحة والطمأنينة في نفوس سكانها، ونتيجة تطورها الاقتصادي والعمراني أصبحت القيروان منطقة جذب كبير للناس من الضواحي[١٨١] ومن كل جهة ، وشدّوا إليها المطايا من كل أفق، وعظم قدرها[١٨٢].

ولخّص الدباغ وضعية المدينة الجديدة بقوله «أقام –حسان– وعمّرها المسلمون. وانتشروا فيها وكثروا»[١٨٣]. وفي سنة (٧٧هـ/ ٦٦٩م) جلبت إليها ألف عائلة من اليهود والأقباط المصريين لتصبح عاصمة اليهود في المغرب العربي[١٨٤]. وما يدل على ارتفاع عدد سكان القيروان أنه لما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان يعلمه أن الجامع يضيق بأهله[١٨٥]. وقام الخليفة عمر بن عبد العزيز بإرسال عشرة من التابعين[١٨٦] ليفقهوا سكان بلاد المغرب في الإسلام، ويبثّوا اللغة العربية بينهم[١٨٧]. وما من شك أن هؤلاء القادمين من المشرق كانوا يتنقلون في أنحاء المغرب لنشر تعاليم الدين الإسلامي إلاّ أن المقر الرئيسي لهم كان القيروان حيث بنى كل منهم دارًا ومسجدًا وكتابًا أو مدرسة صغيرة[١٨٨].

ويذكر اليعقوبي الذي عاش في أواخر القرن الثالث هجري/ التاسع الميلادي أن مدينة القيروان بها أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب، وبها أصناف من العجم من أهل خراسان ومن ورد إليها مع عمّال بني هاشم من الجند، وبها عجم من عجم البربر، والروم وأشباه ذلك [١٨٩]، وهذه الموجات البشرية تبيّن أن القيروان عرفت تزايدًا في عدد السكان من مختلف القبائل والأجناس، ممّا جعلها تشهد خلال القرون الإسلامية الأولى امتدادًا كبيرًا لأحيائها[١٩٠]، وتوسّعًا عمرانيًا لافتًا، ويتّضح ذلك من خلال منشآتها العمرانية، ودروبها، وفنادقها، ومساجدها. ويكفي للدلالة على أهمية التطور العمراني الذي عرفته المدينة طول الشارع التجاري الذي بلغ ميلين وثلثا ميل[١٩١]، أي ما يزيد على ٣ كلم ونصف، وإذا كان هذا طول الشارع التجاري الذي هو جزء من مدينة القيروان فلا شك أن مساحتها كانت كبيرة. وبلغ عدد الحمامات في القيروان ثمانية وأربعين حمّاما، إلى جانب الحمّامات الخاصة[١٩٢]. وكان فيها خمسة آلاف وضم[١٩٣] للجزارين[١٩٤]، وأحصى ما ذبح في القيروان في بعض أيام عاشوراء من البقر خاصة، تسعمائة وخمسين رأسًا[١٩٥]، وهذا العدد الكبير من رؤوس البقر التي ذبحت بمناسبة عاشوراء يدل على اتساع

المدينة، وكثرة مساكنها، وازدحامها بالسكّان. ويصفها الإدريسي مبيّنا ازدهارها التجاري وتطورها العمراني، ونموّها السكاني بأنّها «أم الأمصار، وقاعدة الأقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطرًا، وأكثرها بشرا[١٩٦]».

أصبح الناس يؤمّون أسواق القيروان من كلّ الجهات لاقتناء مواد متنوعة، وتغادرها قوافل تجارية عديدة، حاملة مختلف السلع التي كانت تبلغ دوابها وإبلها الألف أو أكثر بعد أن تكون قد أفرغت حمولتها لتسديد حاجات استهلاكية جديدة في المدينة نتيجة النمو الديمغرافي السريع[١٩٧]. وممّا يدل أيضًا على اتساع مدينة القيروان والزيادة السكانية فيها خلال القرون الإسلامية الأولى تعدّد المدافن، من أشهرها مقبرة البلوية نسبة إلى الصحابي الجليل أبوزمعة البلوي[١٩٨] الذي دُفن فيها، ومنها أيضًا مقبرة قريش الواقعة غربي المدينة، وتسمى اليوم بالجناح الأخضر، وبها من قبور العلماء والصالحين شيء كثير[١٩٩].

وفي عهد الأغالبة عرفت القيروان توسّعا عمرانيًا كبيرًا إلى حد أنها لم تعد تسع جميع السكان[٢٠٠]، حيث أُعيد توسيع مسجدها، ولا شّك أن ذلك كان بسبب زيادة عدد المُصلّين، وهذا إن دل على شيء فإنّما يدل على ارتفاع عدد السكان في المدينة[٢٠١]. كما أن الزيادة الديمغرافية حتّمت على أمرائها إنشاء مراكز عمرانية كثيرة في ضواحيها[٢٠٢] منها العباسية، ورقّادة[٢٠٣]، وصبرة المنصورية[٢٠٤] التي يصفها المقدسي بأنها شديدة العمارة، وعرض صورها إثنا عشر ذراعا[٢٠٥]، وقد تم إنشاء هذه المدن لاستيعاب الأعداد المتزايدة للوافدين على القيروان، وهذه المراكز العمرانية عبارة عن سلسلة من المدن الأميرية[٢٠٦]، مجهّزة بكل ما يلزم للسكن فيها من بيوت وأسواق ومساجد وغيرها من المرافق فأصبحت عامرة[٢٠٧]. ويقّدر حسن حسني عبد الوهاب عدد سكان القيروان خلال القرنين (٤ و٥ هـ/ ١٠و ١١م) بمائة ألف نفس في نقطة واحدة[٢٠٨]. والمطّلع على كتب الجغرافيين والرحّالة، مثل البكري وابن حوقل والإدريسي، يلاحظ أن المدن الواقعة بين إفريقية والمغرب الأوسط كانت آهلة وعامرة بالسكّان، دون تحديد عدد سكانها، فيقول البكري عن جزيرة شريك الواقعة بين سوسة وتونس، وقفصة وتوزر[٢٠٩]، وتهوذا[٢١٠]، ونفطة[٢١١] أنّها مدن كبيرة وآهلة بالسكان[٢١٢]، ويصف ابن حوقل قابس بأن بها البربر الكثير[٢١٣].

(٢/٤) ٢-الزيادة السكانية في تيهرت

بعد تأسيسها سكنتها القبائل البربرية خاصة المناصرة للإباضية[٢١٤] التي انجذبت إليها بفضل ازدهارها الاقتصادي والعمراني، من إفريقية والمغرب الأوسط وحتى الأقصى[٢١٥].

يقول عنها البكري «.. تيهرت الطيبة، النزيهة، غابت في البساتين، وجل بها الإقليم .. وهو بلد كثير الخير، رحب»[٢١٦]. ولم يقتصر سكانها على البربر المحليين بل نزحت إليها هجرات من مختلف أمصار العالم الإسلامي، ومن مختلف المذاهب والطوائف من عجم ومسيحيين وغيرهم.[٢١٧] «وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار وليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه عبد الرحمان بن رستم، وأمانته على نفسه وماله».[٢١٨]

أصبحت تيهرت قبلة لمختلف الأجناس والغرباء. يقول اليعقوبي في هذا الشأن «والمدينة العظمى تيهرت، جليلة المقدار، عظيمة الأمر تُسمّى عراق المغرب، لها أخلاط من الناس، غلب عليها قوم من الفُرس»[٢١٩]. وأعجبتهم أحوالها فقرّروا الاستقرار فيها، ويقول عنها البكري «وانتعش فيها الغريب، واستطابها اللّبيب»[٢٢٠] إلى درجة أنّ ابن الصغير يقول: «حتّى لا ترى دارا إلاّ قيل لفلان الكوفي وهذا لفلان البصري، وهذا لفلان القروي»،[٢٢١] فازداد عدد السكان فيها[٢٢٢]. وكانت هناك أحياء كاملة أنشأتها بعض القبائل والجماعات فابتنت نفوسة لنفسها حي العدوة، وقامت جماعات الجند القادمة من إفريقية هربًا من بطش الأغالبة ببناء حيّهم الذي أقاموا فيه وأطلقوا عليه اسم المدينة العامرة[٢٢٣].

وصلت تيهرت أوج ازدهارها في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب، وأصبحت عاصمة بلد كثير الخير، رحب، رشيق الأسواق[٢٢٤]، فأقام الإمام أفلح خمسين عامًا أميرًا حتى نشأ له البنون وبنو البنين، وشمخ في ملكه، وعمرت معه الدنيا، وكثرت الأموال والمستغلات، فازداد إقبال الناس على تيهرت، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات[٢٢٥]، وانعكس رخاء البلد على تطور عمرانها حتى ابتنى الناس القصور[٢٢٦].

خَاتِمَةٌ

إن الازدهار الاقتصادي الناتج خاصةً عن الدور الهام الذي لعبته إفريقية والمغرب الأوسط في المبادلات التجارية العالمية من خلال تحكّمها في تجارة الذهب بالدرجة الأولى، قد عاد عليها بأرباح طائلة ساعدت على قيام حركة عمرانية واسعة، أدّت إلى إنشاء أو إحياء مدن وحواضر متعددة، اخترنا منها في إفريقية والمغرب الأوسط القيروان وتيهرت، واللتان سرعان ما أصبحتا مدينتي جذب سكاني كبير لما كانت تتوفر عليه من عوامل الاستقرار، ومرافق وإمكانيات مادية ومعيشية تضمن لساكنيها الراحة والحياة السهلة، وظروف ملائمة للتحصيل المعرفي والديني.

الاحالات المرجعية:

(١) الجنحاني (الحبيب)، **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الإسلامي، (ق٣ – ٤ ه/ ٩ – ١٠م)**. الدار التونسية للنشر، تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٢ م، ص ١٨١. جودة حسنين وفتحي أبو عيانة، **قواعد الجغرافية العامة الطبيعية والبشرية**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، لبنان، دون تاريخ. ص٣٧.

(٢) رغم أن ثورا ت الخوارج أثرت سلبًا على الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب إلا أنها لم تكن المسؤولة الوحيدة عن ذلك بل هناك عوامل أخرى منها استنزاف طاقات المغرب في الحروب الطويلة التي استغرقها عملية الفتح وما ارتبط بها من ثورات ضد الفاتحين كتلك التي قام بها كسيلة والكاهنة، وما تمخّض عن هذه الثورات من تخريب للمزارع وإحراق الأشجار، وليس من شك في أن سياسة بعض عمال بني أمية زاد في سوء الأوضاع. (محمود إسماعيل عبد الرزاق، **الخوارج في بلاد المغرب حتّى منتصف القرن الرابع الهجري**، ط٢، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص٢٧١.

(٣) ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن الجزري)، ج ٥، **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧ م، ص ١٢٣. المراكشي عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط ١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٨ ه/ ١٩٤٩م، ص١٦.

(٤) ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** ج ٦، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢١ه/ ٢٠٠٠م، ص١٧٢. ابن عذاري (أبو العباس أحمد بن محمد)، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ج١، تحقيق عواد بشار معروف، محمود بشار عواد، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس، ١٤٣٤ ه/ ٢٠١٣م، ص ١٥٦.

(٥) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن محمد الفاسي)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٢٠. ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص ١١٨. ابن إسحاق (خليل)، **مختصر خليل في فقه إمام أهل الهجرة**، ج ١، تحقيق أحمد علي حركات، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥.

(٦) ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٠.

(٧) جودت عبد الكريم يوسف، **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص ٧٤. – حسن علي حسن، **دولة الأدارسة بالمغرب**، ص ٢٤٥.

(٨) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ١٩٠ – ١٩١.

(٩) بلاد النوبة: أرض واسعة جنوب مصر. كان عدد سكانها كبير، معظمهم نصارى (القزويني) زكريا بن محمود)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص ٢٤ – ٢٥.

(١٠) ميتز (آدم)، **الحضارة الإسلامية، في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام**، ج ٢، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أو ريد، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ، ص ٣٥٥– حسن خضيري أحمد، **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب (٣٦٢ – ٥٦٧ ه/ ٩٧٣ – ١١٧١م)**، ط ١، مكتبة مدبولي، مصر، بدون تاريخ، ص ٩٧.

(١١) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ص ٦٥.

(١١) كان معدن الذهب ينقل عبر المسالك الغربية التي ضمت عدة مراكز أساسية في كل من المغرب الأقصى، الصحراء الغربية وموريتانيا وتلمسان. وكان هذا الطريق الغربي يحتوي على بابين: باب الشمال ويُسمّى سجلماسة، وباب الجنوب ويُسمّى أودغشت (بن موسى جميلة، **تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، من القرن الثالث إلى الخامس الهجري (٩ م – ١١م)**، بحث لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، ٢٠٠٠ – ٢٠٠١ م، ص١٨٥).

(١٢) ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج ٦، ص ٤١٨.

(١٣) **أودغشت**: مدينة بين صحراء لمتونة جنوب موريطانيا حاليًا والسودان الغربي أو غانة. استقر بربر صنهاجة الملثمين حوالي القرن ٣ ه/ ٩م في المنطقة، وهم رعاة رحل أين توفرت لهم المراعي. وكانت أودغشت إحدى المحطات التجارية لصنهاجة على الحدود الشمالية لمملكة غانة. ومن أهم العوامل التي ساهمت في نمو اودغشت وازدهارها تجاريا هي : - وقوعها على الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة وغانة – توفر هذا الطريق على الماء – كون أودغشت همزة وصل بين مناجم الملح الذي كان يُنقل إلى السودان – كون أودغشت مستودع تبر السودان – كانت بها مراكز تحويل الذهب مماساهم في ثرائها وازدهارها الحضاري – قوة حكامها (الحميري (محمد بن عبد المنعم)، **الروض المعطار في أخبار الأقطار**، حققه إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص٦٣، ٦٤ – ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٦ – مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، العراق، ١٩٨٥، ص٢١٦.

Lewiski (Tadeusz), le role du sahara et des sahariens dans les relations entre le nord et le sud, in histoire générale de l'Afrique, vol 3, l'Afrique du 7eme au 11 siécle, Edicef; Unesco, 1997, p. 304.

البكري (أبو عبيد)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٥٨-١٥٩.

(١٤) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩١.

سجلماسة: بُنيت سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٨م)، كانت عاصمة للمدراريين. تقع في الطريق الغربي المؤدي إلى غانة، والمسافة بينها وبين غانة شهرين، وبينها وبين وادي درعة خمسة أيام، وبينها وبين فاس عشرة أيام، وتعتبر من أكبر مدن الصحراء المغربية، تبعد عن البحر خمسة عشر مرحلة، وهي مدينة سهلية، لها بساتين كثيرة، وتمتاز بقصورها وديارها مما جعلها مقصدا للوارد والصادر. وعُرفت بكونها أهم محطة لتجارة الذهب الذي كان يُجلب من السودان الغربي. اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب)، **البلدان**، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص ١٩٨. البكري، المصدر السابق، ص ١٤٩ – الحميري، المصدر السابق، ص ١٩٢، ٣٠٥،٣٠٦ – ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٤٢.

(١٥) تنتمي ورجلان أو ورقلة إلى ما يعرف بالقصور في الشمال الإفريقي، وتمتد من شرق طرابلس، ثم جنوب غرب جبل نفوسة مرورًا بفريان، يفرن، جادو ثم كاباونالوث. أما شمالاً فتبدأ من الجنوب التونسي مرورًا بقصور تطاوين ومطماطة، لتتجه غربًا نحو الجنوب الجزائري، أي قصور وادي ريغ، ورقلة ثم إلى الجنوب الغربي أي إلى توات، قورارة، تيديلكت، ثم غربًا نحو بني ميزاب، جبال عمور، والقصور إلى غاية أقاصي المغرب الأقصى. وقد لعبت هذه القصور دور المحطة التجارية للقوافل المتجهة على السودان الغربي وسوقا لبضائعها. وشكلت ورقلة وسدراتة أكبر المحطات التجارية التي عرفها المغرب الأوسط خلال العصور الوسطى، ونقطة اتصال العديد من الطرق المؤدية على السودان الغربي، كما اعتبرت ورقلة من أكبر الواحات الصحراوية التي كانت تسقي بالآبار الإرتوازية. وتعود أهمية ورقلة إلى موقعها الاستراتيجي بالنسبة لطريق ذهب غانة، حيث كانت القوافل تخرج من ورقلة وسدراتة لتصل إلى توات ثم تتوجه نحو تادمكة وأخيرًا جاو. ومن أهم المناطق التي كانت تتصل بغانة مرورا بورقلة مدينة تيهرت، إضافة إلى مدينة سجلماسة.

Gaudio (Atillio), Les civilisations du Sahara, marabout univérsité, Editions Gerard, Verviers, 1967, p. 201

راجع: بن موسى، المرجع السابق، ص٢٠٧.

(١٦) ابن حوقل، المصدر، ص ٤٢.

(١٧) تذكر الأستاذة جميلة بن موسى أن كميات كبيرة من ذهب السودان كانت تُنقل نحو المغرب والعالم الإسلامي. ومن الباحثين الأجانب الذين حاولوا إعطاء أرقام عن كميات الذهب التي كان السودان الغربي يستخرجها من مناجمه ويصدرها إلى المغرب الإسلامي موريس لمبار، مونيي وغيرهم من خلال مقارنة بين ما كان يُستخرج من مناجم السودان من الذهب في القرون المتأخرة، وما كان يستخرج منها في القرون الإسلامي الأولى. (بن موسى، المرجع السابق، ص ١٦٦ – ١٦٧).

(١٨) الجنحاني، المرجع السابق، ص ١٦.

(١٩) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٧٦.

(٢٠) البرزلي (أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي)، **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، ج ٢، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٦٣.

(٢١) لمبارموريس، **الإسلام في مجده الأول من القرن ٢ إلى ٥ ه (٨-١١م)**، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ٢٠٠٣م، ص٢٠٧.

(٢٢) الجنحاني، المرجع السابق، ص١٦.

(٢٣) موريس لمبار، **الإسلام في مجده الأول**، ص ١٨٣.

يمكن تمييز أربع حالات عند انتقال المدينة من نسيجها القديم إلى نمطها الإسلامي وهي: المدينة القديمة تتحول إلى مدينة إسلامية مثل ما هو عليه حال قسنطينة وسطيف – بناء مدينة حديثة (إسلامية) بجانب المدينة القديمة لتصبحا مكملتين لبعضهما كما هو الحال بالنسبة لتيهرت وبونة وتنس – هجران المدينة القديمة وبناء مدينة حديثة بجانبها كما هو حال المسيلة، المدية وملیانة– بناء مدينة حديثة إسلامية خاصة مثل حال القيروان، فاس والقلعة. علاوة عمارة، **دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ٢٠٠٨ م، ص١٣٩.

(٢٤) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، ص ١٣٠. الحميري، المصدر السابق، ص ٨١.

(٢٥) أصبح الرقيق يلعبون دورًا هامًا في المجتمع المغربي نظرًا لما حققه المغرب الإسلامي من رفاهية وتطور بعد أن أمطرت عليهم سماء السودان الذهب الخالص حيث تنافس التجار خاصة اليهود على اقتناء أحسن العناصر البشرية التي كانت تمثل العبيد السود خاصة أودغست التي كان يجلب منها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهم ١٠٠ دينار أو أزيد على حد تعبير كتاب الاستبصار. (مجهول، **الاستبصار**. ص ٢١٦). ومن بين الأسباب التي أدت إلى انتشار تجارة العبيد في المغرب الإسلامي انخفاض أسعارهم لصبح سجلماسة وورجلة أهم المراكز التي استقبلت خصي العبيد قبل تسويقهم إلى داخل وخارج المغرب. (جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص ٢٢٨ – انظر: بن موسى، المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٢٦) الجنحاني، المرجع السابق، ص ١٧.

(٢٧) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢٨) ابن خلدون، المقدمة، ص٣٤٢.

(٢٩) نفسه، ص ٣٤٣.

(٣٠) غوردو عبد العزيز، **الفتح الإسلامي لبلاد المغرب جدلية التمدن والسلطة**، ط٢، المكتبة الوطنية الكويتية،٢٠١١م، ص٦٧.

(٣١) ابن خلدون، **المقدمة**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،٢٠٠١، ص ٣٥٩.

(٣٢) ابن منظور (محمد بن مكرم الإفريقي)، **لسان العرب**، ج ١٣، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤، ص ٤٠٢.

(٣٣) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ط ٤، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ٢٠٠٤، ص ٨٥٩. أحمد رضا، **معجم متن اللغة**، ج ٥، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٣٩ / ١٩٦٠م، ص ٢٦٤.

(٣٤) سورة الأعراف: الآية ١٢٣.

(٣٥) شاكر(مصطفى)، **المدن في الإسلام حتى العصر العثماني**، ط٢، مكتبة الأسد، سوريا، ١٩٩٧، ص٤٧.

(٣٦) السبتي (عبد الأحد) وفرحات (حليمة)، **المدينة في العصر الوسيط: (قضايا ووثائق من تاريخ المغرب الإسلامي)**، ط ١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص٥.

(٣٧) ناجي (عبد الجبار)، **دراسات في تاريخ المدن الإسلامية**، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠١، ص٥٩.

(٣٨) **الرستاق**: كلمة فارسية، ومعربها الرزداق، وجمعها الرزداقات والرزاديق، وهي القرية أو محلة العسكر أو البلد التجاري. عمارة محمد، **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، ط ١، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٤١٣ه/ ١٩٩٣م، ص ٢٤٨.

(٣٩) القزويني، المصدر السابق، ص ٧.

(٤٠) محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، ج١، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، ١٩٩٩ م، ص ٥٦.

(٤١) الهذلول (صالح بن علي)، **المدينة العربية الإسلامية**، أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية، ١٩٩٤، ص١٩.

(٤٢) عثمان محمد عبد الستار، **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٨، ص ٩٥ – ٩٦.

(٤٣) تأسست على يد عقبة بن نافع، (الحموي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٢٤).

(٤٤) وقوع تيهرت في سفح جبل على نهرين، تاتش ومينا كان من بين أسباب اختيار عبد الرحمان بن رستم لها واتخاذها عاصمة لدولته الجديدة (البكري، المصدر السابق، ص ٦٦ – الجنحاني، المرجع السابق، ص١٠٥).

(٤٥) أسسها الناصر بن علناس الحمادي (الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، **معجم البلدان**، ج١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ م، ص ٣٣٩.

(٤٦) أسسها الخليفة المهدي الفاطمي (الإدريسي الشريف، **المغرب وأرض السودان والمغرب مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع. بريل، ١٨٦٣م، ص ١٠٣، ١٠٧).

(٤٧) البكري، المصدر السابق، ص ٣٧ – الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١١.

(٤٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٧٤ – البكري، المصدر السابق، ص ٣٦.

(٤٩) الموسوي (مصطفى عباس)، **العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدينة العربية الإسلامية**، بغداد، ١٩٨٢، ص١٥٩.

(٥٠) عقبة بن نافع: الفهري الأنصاري، ولد على عهد رسول الله (ﷺ). هو ابن خالة عمرو بن العاص، ولاه عمرو بن العاص إفريقية. وافتتح عامة بلاد البربر، وهو الذي اختط القيروان، وذلك في زمن معاوية بن أبي سوفيان. وقتل عقبة سنة (٦٣ه/ ٦٨٣م) على يد كسيلة بعد أن غزا السوس الأقصى. وقبره ببسكرة (أبو عمر يوسف ابن عبد البر، الإستيعاب في معرفة الأصحاب ، مج ٢، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الجيل، ١٤١٢ ه / ١٩٩٢ م، ١٠٧٦ – ١٠٧٧ – الدباغ أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسدي (٦٠ – ٦٩٦ ه / ١٢٠٨ – ١٢٩٧م) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ج١، أكمله وعلق عليه، التنوخي (أبو الفضل بن عيسى بن ناجي (٨٣٩ ه/ ١٤٣٥م)، تحقيق محمد أحمدي أبو النور، ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي بمصر، المكتبة العتيقة بتونس، ١٩٦٨، ص ١٦٤ – ١٦٧، المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد)، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، ج١، حققه بشير البكوش، وراجعه محمد لعروسي المطوي، ط ١، ١٤٠٣ ه – ١٩٨٣ م، ط ٢، ١٤١٤ ه – ١٩٩٤ م، دار الغرب الإسلامي، ص ٣٢ – ٩٧).

(٥١) يُطلق الميل في اللغة على عدّة معان، فمنها الميل الذي يكتحل به، ومنها القطعة من الأرض بين الجبلين، ومنها الميل أي مد البصر. والميل مسافة ليس لها حد يومئذ، وتُقدّر بأربعة أذرع، حدّدها البكري بالميل في عصره فوجدنا الميل يفوق الكلم ونصف بقليل. (علي جمعة، علي جمعة محمد، **المكاييل والموازين الشرعية**، ط ٢، القدس للإعلان والنشر والتسويق، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٥٣ - الجنحاني، المرجع السابق، ص٥٣).

(٥٢) الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص ٨٧.

(٥٣) نفسه.

(٥٤) الحموي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٢١.

(٥٥) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٤.

(٥٦) زيتون (محمد محمد)، **القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية**، ط١، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، ١٤٠٨ه/ ١٩٨٨ م، ص٨٣.

(٥٧) الزهري (محمد بن أبي بكر) (ق٦ه/ ١٢م)، **كتاب الجغرافيا**، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ص ١١٠.

(٥٨) بن موسى، المرجع السابق، ص ١٩٢.

(٥٩) الحميري، المصدر السابق، ص ٣٨٢.

(٦٠) الوزان (الحسن)، **وصف إفريقيا**، ج٢، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣ م. ص ٨٨.

(٦١) الجنحاني، المرجع السابق، ٤٩.

(٦٢) الزهري، المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٦٣) الإصطخري (أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الفاسي)، **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال، دار القلم، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٤.

(٦٤) ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص ٢١.

(٦٥) المقدسي، المصد السابق، ص ٢٢٥.

(٦٦) الجنحاني، **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب**، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٦٨، ص ٥٧.

(٦٧) ارتبطت القيروان مع سجلماسة عبر المسلك الذي كانت تعبره القوافل المتنقلة بينهما، ويمتد بين المدينتين على مسيرة شهرين، ويبدأ من سجلماسة متجها نحو نفزاوة القريبة من القيروان، ثم قسطيلية (الحميري، المصدر السابق، ص ٨٨٢ – الإصطخري، ص٦٩).

(٦٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٥.

(٦٩) المقدسي (شمس الدين)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط ٢، مطبعة بريل، مدينة ليدن المحروسة، ١٩٠٩م، ص٢٢٥.

(٧٠) اليعقوبي، المصدر السابق، ص٩٤ – ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٤ – الحميري، المصدر السابق، ص٣٨٢.

(٧١) الحميري، المصدر السابق، ص٤٨٧.

(٧٢) سعد زغلول (عبد الحميد)، **تاريخ المغرب العربي**، ج٢، منشأة المعارف، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص٥٩٧.
(٧٣) الجنحاني، المرجع السابق، ص٥١.
(٧٤) روجي إدريس (الهادي)، **الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلى ق ١٢م**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م، ص ١٠.
(٧٥) نفسه، ص ٥٤.
(٧٦) الحميري، المصدر السابق، ص ٤٨٧. ابن خلدون، **العبر**، ج ٦، ص٢١. ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٩٧ -ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص ٣١٨.
(٧٧) شوقي (أبو خليل)، **فتح صقلية**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨ م، ص٧١.
(٧٨) الجنحاني، المرجع السابق، ص٦١. ابن حوقل، المصدر السابق، ص١١٧.
(٧٩) ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص٢١. ابن الأثير، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٤.
الباع: هو مقدار مد اليدين، وقيل هو طول ذراعي الإنسان وعضديه وصدره، وذلك قدر أربعة أذرع. ومقدار الباع عند الحنفية ١،٨٥٥ متر، وعند المالكية ١٢، ٢م، وعند الشافعية ٤٧٣، ٢م (علي جمعة، المرجع السابق، ص ٥٢).
(٨٠) البكري، المصدر السابق، ص٢٥.
(٨١) زيتون محمد، المرجع السابق، ص ٩٣.
(٨٢) الجنحاني، القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ص ٥٨.
(٨٣) حسن حسني عبد الوهاب، **بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق**، تقديم محمد العروسي المطوي، مكتبة القيروان الساحرة، تونس، ١٩٧٠، ص ١٧.
(٨٤) البكري، المصدر السابق، ص٢٤. مؤلف مجهول، الإستبصار، ص ١١٤. ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٧.
(٨٥) الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٨.
(٨٦) البكري، المصدر السابق، ص ٢٤.
(٨٧) **الذراع:** هو بسط اليد ومدّها، وأصله من الذراع وهو الساعد، وهو ما بين طرفي المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى، ومقدارالذراع عند الحنفية حوالي ٤٦ سم، وعند المالكية حوالي ٥٣ سم، وعند الشافعية والحنابلة حوالي ٦١ سم. (محمد عمارة، المرجع السابق، ص٢٣٢ – ٢٣٤. أحمد الشرباصي، المرجع السابق، ص١٧٩. علي جمعة، المرجع السابق، ص٥٠). وإذا أخذنا مقدار الذراع عند المالكية وهو ٥٣ سم وقمنا "بضربه في ١٢٠ ذراع طول المسجد، ١٢٠م × ٥٣ سم = ٦٣٦٠ سم، وبقسمتها على ١٠٠ = ٦٣٦ م، طول المسجد، و١٥٠ عرضه، ١٥٠ × ٥٣ = ٧٩٥٠ وبقسمتها على ١٠٠ = ٧٩،٥ م عرض المسجد.
(٨٨) البكري، المصدر السابق، ص٢٣ – ٢٤. **المثقال**: ما يوزن به، وهو من الثّقل. والناس يطلقونه في العرف على الدينار. وفي قوله تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) سورة الزلزلة، الآية: ٧ و٨. واختلف المثقال عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأقاليمها وأوطانها، لكنه في عرف أغلب بلادها أطلق على ما يكون وزنه قطعة ذهب مقدرة بعشرين قيراطا، أي مائة شعرة، والمثقال أيضًا زنة اثنتين وسبعين حبة شعير. الشرباصي (أحمد)، **المعجم الاقتصادي الإسلامي**، دار الجيل، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م، ص ٤٠٣-٤٠٤. محمد عمارة، المرجع السابق، ص ٥١٠ – ٥١١).
(٨٩) الحميري، المصدر السابق، ص٤٨٧.
(٩٠) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ١٩.
(٩١) نفسه، ص٢١.
(٩٢) البكري، المصدر السابق، ص٢٦.
(٩٣) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ١٦.
(٩٤) محمد زيتون، المرجع السابق، ص ٩٥.
(٩٥) نفسه، ص ٩٨.
(٩٦) لمبار، المرجع السابق، ص٢٠٨.
(٩٧) الحموي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٦. الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص٩٠.
رقادة: بلدة بإفريقية، بينها وبين القيروان أربعة أيام، وأكثرها بساتين، ولم يكن بإفريقية أطيب هواء وأرق تربة منها. بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وانتقل إليها من القصر القديم، ولم تزل دار ملك بني الأغلب إلى أن هرب منها زيادة الله من أبي عبيد الله الشيعي، وسكنها عبيد الله إلى أن انتقل منها إلى المهدية. (الحموي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٥ – الحميري، المصدر السابق، ص ٢٧١ – الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٠٨ – ١١١).
(٩٨) مؤلف مجهول، **الإستبصار**، ص ١١٦.
(٩٩) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.
(١٠٠) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢٢٥. ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٤.
(١٠١) **الدرهم**: فارسي معرب. لغة: اسم لمضروب مدور من الفضة. وشرعا عملة فضية، كان وزنها في عهد الرسول (ﷺ) سبعة أعشار مثقال – أي سبعون شعيرة – ولقد اختلفت مقادير الدرهم زمانا ومكانا، وتعددت إضافته إلى أماكن ضربه، أو متولي ضربه أو نقاء معدنه وقيمته. وعرف التاريخ الاقتصادي الإسلامي أنواعا كثيرة من الدراهم، منها الدرهم المؤمني نسبة إلى عبد المؤمن بن علي. كانت قيمته الفضية: نصف درهم، وهو الدرهم اليعقوبي، وهو عملة مغربية صغيرة. (محمد عمارة، المرجع السابق، ص ٢١٤ – ٢١٧).
(١٠٢) لمبار، المرجع السابق، ص ٢٠٩.
(١٠٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.
(١٠٤) نفسه.
(١٠٥) نفسه، ج١، ص ٥٠.
(١٠٦) البكري، المصدر السابق، ص٦٦.
(١٠٧) الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨.
(١٠٨) الجنحاني، المرجع السابق، ص ١٠٥.
(١٠٩) الإصطخري، المصدر السابق، ص ٣٤.
(١١٠) ارتبطت تيهرت بسجلماسة عبر طريق يبدأ من أوزكا، وهي مدينة بالمغرب، وهي على ثلاث مراحل من تيهرت، ويتجه نحو سجلماسة سبع مراحل، وحسب هذا التقدير فإن الطريق الرابط بين سجلماسة وتيهرت تقدر مسافته بعشر مراحل. وارتبطت كذلك تيهرت بسجلماسة من خلال الطريق الذي تخرج منه القوافل من تيهرت نحو فاس وصولاً إلى سجلماسة. (الحميري، المصدر السابق، ص ٤٢ – اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٤٩ – ١٥٠).
(١١١) الطريق الذي يربط سجلماسة بأودغشت مرورا بتاغازة، ومن مميزاته أنه يمر بسبخة الملح المشهورة بتاغازة، والتي

يتزود منها التجار بالملح الذي يستبدلونه بذهب السودان (شنايت العيفة، **دولة بني مدرار سجلماسة ودور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري** رسالة ماجستير، ١٩٩٠-١٩٩١، ص١٤٢).

(١١٢) بن موسى، المرجع السابق ن ص ١٩٦.

(113) Lewincki , Etudes maghrébines et soudanaises , p 13

(١١٤) بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ٦٦ –الحريري (محمد عيسى)، **الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)**، ط٢، دار القلم للنشر والتوزيع، مصر، ١٤٠٣ه/ ١٩٨٧م، ص ١٩٢ – ١٩٣.

(١١٥) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٥٦.

(١١٦) نفسه، ص ٣٢.

(١١٧) نفسه، ص ٨٠.

(١١٨) مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ص ٧٥ – ٧٦.

(١١٩) الإدريسي، المصدر السابق، ١٩٨.

(١٢٠) البكري، المصدر السابق، ص ٦٣ -الإدريسي، المصدر السابق، ص ٨٩.

(١٢١) زغلول (عبد الحميد)، **تاريخ المغرب العربي**، ج٣، مكتبة نشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٣٧٤.

(١٢٢) البكري، المصدر السابق، ص ٦٧ – القزويني، **آثار البلاد**، ص١٦٩ – الحميري، المصدرالسابق، ص١٢٦- الحموي المصدر السابق، ج ٢، ص٨.

(١٢٣) الحريري، المرجع السابق، ص ٢٣٤.

(١٢٤) الشماخي (أحمد بن سعيد بن عبد الواحد)، **كتاب السير**، ج١، تحقيق أحمد بن سعود السيابي، سلطنة عمان، ١٤٠٧ه/ ١٩٨٧، ص ١٧٦ – ١٧٧.

(١٢٥) الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨.

(١٢٦) ابن الصغير، **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق وتعليق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م، ص٣٢، ٣٥.

(١٢٧) الباروني (سليمان باشا)، **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، مراجعة محمد علي الصلابي، ط ١، دار الحكمة، لندن، ٢٠٠٥، ص ١٤٣.

(١٢٨) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٣٣.

(١٢٩) الباروني، المصدر السابق، ص ١٤٣.

(١٣٠) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٥٦ - الحريري، المرجع السابق، ص ٩٩.

(١٣١) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٣٤.

(١٣٢) نفسه، ص ٥٦.

(١٣٣) نفسه، ص ١٤٩.

(١٣٤) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٦٢.

(١٣٥) نفسه، ص ٥٦.

(١٣٦) هناك صعوبات كبيرة تعترض المؤرخ الديمغرافي في استغلال المصادر التاريخية حيث يشير عبد الحميد حدوش إلى أن الدراسات التاريخية تمنح الأولوية للحدث السياسي على حساب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وبالأخص منها المواضيع الديمغرافية، بالإضافة إلى صعوبة التكميم بالنظر إلى قلة المعطيات الرقمية في المصادر على اختلاف أنواعها، كما أن المادة التاريخية المستخلصة تتميز بالتقطع الزماني والمكاني (عبد الحميد حدوش، **معوقات الانتقال الديمغرافي في العالم العربي خلال القرن ١٨: المغرب نموذجًا**، ورقة مقدمة في المؤتمر العالمي للسكان، مراكش، ٢٠٠٩).

(١٣٧) الطويل (محمد حجاج)، **المسألة الديمغرافية: نحو منهجية ديمغرافية، محاولات إحصائية، العصر الوسيط نموذجًا**، مجلة كنانيش، العدد ١، منشورات كلية الآداب، وجدة، المغرب، ١٩٩٩، ص ١٩.

(138) Noel biraden (Jean), essai sur l'évolution du nombre des hommes. in population 34 eme année , n 1 , 1979 , p 13

(١٣٩) نقص الوثائق التاريخية التي تتضمن إحصائيات عن عدد السكان في بلاد المغرب الإسلامي رغم تنوع مصادر المادة المعرفية التي يمكن الرجوع إليها من قبل الباحث في التاريخ الديمغرافي للمغرب الوسيط. وتتمثل في كتب الأنساب، الطبقات، التراجم، الوفيات، كتب النوازل الفقهية، سجلات الخراج والضرائب...إلخ (محمد حالي، **الديمغرافية التاريخية للمغرب الوسيط من خلال تاريخ ابن خلدون**، أكاديمية الجهة الشرقية، المغرب، ص ٥٨)

(١٤٠) يرجع تاريخ الإحصائيات الأولية للسكان فيها إلى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد ولهذا فمن الصعوبة بمكان التعرف على الديمغرافية للمنطقة خلال القرون الوسطى انطلاقًا من مصادر حديثة. وقبل ظهور الإحصائيات السكانية المعاصرة شهدت معظم الحضارات عمليات التعداد السكاني، وأولى العمليات التعدادية تعود إلى الحضارة السومرية خلال الألفين ٤ و٣ قبل الميلاد. وفي بداية الدولة الإسلامية يمكن اعتبار نشأة الدواوين منذ فجر الإسلام إرهاصات مبكرة لظهور التعدادات. وعندما عزم عمر بن الخطاب على فرض العطاء لمستحقيه أمر بإحصاء الناس لكي يتم توزيع الأموال الفائضة في بيت المال فبدأ بقرابة الرسول (ﷺ) ثم الأقرب فالأقرب. وقد تم التطرق إلى هذه النقطة في فصل سابق. (أحمد مصطفى أبو ضيف، **دراسات في تاريخ الدولة العربية**، ط ١، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٤٨، ص ٤٢٢ – ٤٢٣).

(141) Tabutin (Dominique), vilquin (Eric), Noel Biraben, l'histoire de la population de l'afrique du nord ,univérsité catholique de Louvain, Belgique, INED, Paris, France, p 15.

(١٤٢) تعددت المصادر الأساسية للديمغرافيا التاريخية في العالم الإسلامي حيث أن كل المصادر التقليدية، بما فيها كتب الأنساب والطبقات والتراجم والوفيات، وكتب السيرة والمغازي والتاريخ العام وكتب الحديث وأدب الرحلات، وكتب النوازل الفقهية وسجلات الخراج والضرائب، ومختلف العقود ذات الصلة بالمواريث والبيوع والأحوال الشخصية، توفر للباحث في هذا الحقل المعرفي الجديد صنوفا من المعارف السكانية التي تتصل بشكل أو بآخر بالأحداث السكانية المختلفة كالزيجات والولادات والخصوبة والوفيات والهجرات السكانية – محمد حالي، **تطور الديمغرافية التاريخية في سياق التاريخ الجديد**، مجلة كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، متخصصة في الدراسات التاريخية، شعبان ١٤٣٥ ه /٢٠١٤ م، العدد٢٤، ص ٥٨).

(١٤٣) نشأ علم الديمغرافية التاريخية كعلم حديث فيفرنسا في خمسينات القرن العشرين على يد لوي هنري، وهو علم يحاول فهم التاريخ من خلال معرفة عميقة بالسكان من حيث

العدد، والقوة الناشطة والعاطلة، والمستهلكين، وغيرها من الأمور المرتبطة بالسكان (مصطفى نشاط ومحمد إستيتو نور الدين المودان، **الديمغرافيا في تاريخ المغرب**، مجلة كنانيش، متخصصة في الديمغرافيا التاريخية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المملكة المغربية، العدد الأول، ١٩٩٩، ص ١٤). وتتقاطع الديمغرافية التاريخية مع الديمغرافية من حيث الموضوع والمنهج، فهي تنقل المنهج الديمغرافي وتحاول تطبيقه في دراسة التاريخ الديمغرافي لساكنة معينة في تاريخ معين، وموضوعها هو موضوع الديمغرافية (أي السكان ومايرتبط بهم من الظواهر)، إلا أن الاختلاف الأساسي بين التخصصين هو كون الديمغرافية التاريخية تدرس الخصائص الديمغرافية للسكان وترصد تغيراتها في الزمن الماضي. ومن هنا تختلف مصادرها وتقنياتها ومناهجها بالضرورة عن مثيلاتها في الدراسة الديمغرافية الآنية، مع حضور مناهج التقدير الكمي في كل منهما (القاسمي فخر الدين، **الديمغرافية التاريخية**، دراسة حالة المغرب الوطاسي، الجوار المتمدن، العدد ٥٥٩٦، ٢٠١٧).

(١٤٤) لم يهتم المسلمون مشرقًا ومغربًا بضبط تواريخ الأحداث السكانية إذ لم يكن الوعي بتدوين المعطيات السكانية لذاتها أو لأغراض إحصائية حاضرًا لديهم، وإنما كان يتم تسجيل ما يتعلق بالولادات و الوفيات والأنساب عند الحاجة في مجالات اجتماعية وعلمية غير ميدان السكان، كدراسة عدالة الرواة، ومعرفة وفيات العلماء، وتنظيم أنساب القبائل، وضبط التنظيم الإداري والمالي للدولة الإسلامية بوضع سجلات الدواوين كديوان الجند والخراج. فكثيرًا ما نقرأ في الأخبار أن فلانا ولد عام كذا وكذا، فكانوا يؤرخون بعض الأحداث السكانية بالوقائع الكبرى والحوادث التي تحفظها ذاكرتهم الجماعية، وفي معظم الحالات بعد مرور الوقت على الظواهر والأحداث السكانية المعنية. (مختار محمد، **المعسول**، ج١٤، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٦١ – ١٩٦٢، ص ١٠٩).

(١٤٥) على عكس علم الديمغرافية الذي يعتمد على مصدرين هامين هما الإحصاءات السكانية وسجلات الحالة المدنية فإن الديمغرافيا التاريخية لا تتوفر إلا استثناء على مصادر إحصائية موثوقة ودقيقة، لهذا من الضروري أن يلجأ الباحث في تاريخ الديمغرافيا إلى مصادر خارجية لم تكتب أساسًا لأغراض علمية كسجلات الكنائس في أوربا، والزيجات والدفن، وعقود الزواج، وسجلات الضرائب. وهذه الوثائق تجبر المؤرخ على التعامل معها بحذر شديد لعدة أسباب، أهمها عدم دقة البيانات المسجلة، وحتى يتفادى المؤرخ النقائص والثغرات يلجأ إلى تعدد الوثائق من مصادر أخرى.

(١٤٦) بوتشيش (إبراهيم القادري)، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص ٥٤. هناك إشارات عددية لكنها قليلة نجدها متناثرة بين طيات المصادر مثلما أورده البكري عن عدد سكان الغدير بالمغرب الأوسط الذي يقدرهم بستين ألف، وكان مجمع الواصلية قرب تاهر ت عددهم نحو ثلاثين ألف (البكري، المصدر السابق، ص ٦٠، ٦٧).

(١٤٧) حالي (محمد)، **الديمغرافية التاريخية للمغرب الوسيط من خلال تاريخ ابن خلدون**، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ٢٠١٣ م، ص ٧٦.

(١٤٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٧.

(١٤٩) الإدريسي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٤.

(١٥٠) بوتشيش، **أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب الوسيط** (دراسة حالة)، الديمغرافيا في تاريخ، مجلة كنانيش، ١٩٩٩م، العدد الأول، ص ٤٥.

(١٥١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٠١.

(١٥٢) محمد حالي، المرجع السابق، ص ٧٤.

يستفيد الباحث في الديمغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط من التنظيمات التي أوردها ابن خلدون في علاقته بموضوع العمران البشري وتطوره. ومن جملتها المقارنة التي يجريها بين العمر الطبيعي للدولة وعمر الأشخاص. ويشير في هذا الصدد أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، وأن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال. (محمد حالي، المرجع السابق، ص ٧٢ – ابن خلدون، **المقدمة**، ص ١٧٠).

(١٥٣) بوتشيش، المرجع السابق، ص ٥٤.

(١٥٤) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٢٧٩.

(١٥٥) محمد حالي، المرجع السابق، ص ٧٤.

(١٥٦) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ١٧٤.

(١٥٧) نفسه، ص ٣٤٣.

(١٥٨) سبق أن ذكرنا أن تاريخ بلاد المغرب خلال العصر الوسيط هو تاريخ مدن بالدرجة الأولى بحكم أن المصادر لأساسية وخاصةً كتب الرحالة والجغرافيين ركزت اهتمامها على الأوضاع السائدة داخل هذه المدن، وعلاقتها بالمناطق المحيطة بها من قرى وأرياف.

(١٥٩) **كتامة**: قبيلة من قبائل البربر البرانس أهل المدر المستقرين. مواطنهم أرياف قسنطينة وشرق المغرب الأوسط من جبال أوراس جنوبًا إلى البحر ما بين بونة وبجاية. تشيع أهلها وساعدوا عبيد الله المهدي في تأسيس الدولة الفاطمية، وساهموا في توسعاتها، وأصبحوا عصب دولتها. (ابن خلدون، **ديوان العبر**، ج ٦، ص ١٩٢ – ١٩٦).

(١٦٠) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٩٩.

(١٦١) جعيط (هشام)، **تأسيس الغرب الإسلامي**، القرن الأول والثاني الهجري/ السابع والثامن الميلادي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٤، ط ٢، ٢٠٠٨، بيروت، لبنان، ص ١٥٢ – ١٥٣.

(١٦٢) يقول ابن خلدون أن: «طور الدولة من أولها بداوة، ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه، واتساع الأحوال، والحضارة إنما هي تفنن في الترف، وإحكام الصنائع المستعملة، ووجوهه ومذاهبه من المطابخ، والملابس، والمباني، والفرش، والأبنية، وسائر عوائد المنزل، وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه، تختص به، ويتلو بعضها بعضا وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ، والتنعم بأحوال الترف، وما تتلون به من العوائد، فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك». (ابن خلدون، **المقدمة**، ص١٧٢).

(١٦٣) موسى لقبال، **تاريخ المغرب الإسلامي**، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ. ص٣٣ – الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.

(١٦٤) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٣١.

(١٦٥) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ١٧٢.

(166) Lombard (Maurice), l'évolution urbaine pendant le haut moyen age , article dans annales économies , sociétés , civilisations , 12 eme année , n 1 , 1957 , p 20 – 28.

(١٦٧) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص ٤٣٣.

(١٦٨) نفسه.

(١٦٩) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ١٧٢.

(١٧٠) محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، ج١، جامعة تونس الأولى، ١٩٩٩م، ص٩٤.

(١٧١) وردت مؤشرات كثيرة في المصادر التاريخية خاصة كتب الرحالة والجغرافيين يمكن اعتبارها كمعايير لتكوين تصورأن نظرة ولو بسيطة عن حجم وعدد السكان في المغرب الإسلامي. ويمكن تصنيفها إلى: ١-مؤشرات معمارية وعمرانية: مثل عدد القبائل، والمدن، والقرى، وباقي التجمعات السكانية كالقلاع والحصون، المداشر. أيضًا مساحة المدن وطول أسوارها وعدد أبوابها، وتعدد مرافقها العمومية مثل المساجد والحمامات والفنادق والأسواق، وتعدد أزقتها ودروبها، وأحيائها. ومن بين المؤشرات المعمارية أيضًا تعدد مصادر المياه، وتنوع وسائل تزويد السكان بالمياه. كذلك الأراضي الفلاحية من حيث أنواعها ومساحتها، وطرق استغلالها. ونسبة استهلاك المواد الغذائية مثل الحبوب واللحوم والزيوت وغيرها. ٢ – مؤشرات إحصائية مثل الضرائب والجبايات بجميع انواعها، ومقدارها، وعدد الناس المفروضة عليهم.٣- مؤشرات تقديرية وكمية، وتميزت غالبًا بطابع التعميم مثل ما أرده بن خلدون عن القبائل البربرية التي يقول عنها أن المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم.. (حجاج الطويل، المرجع السابق، ص٢٠ – ٢٢).

(١٧٢) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٤٩.

(١٧٣) كان قيام القيروان وبناؤها على يد عقبة بن نافع حدثا له أهمية بالغة في تاريخ إفريقية الإسلامية لأنها نواة لولاية جديدة هي ولاية المغرب. وقد أراد عقبة أن تكون القيروان معسكرًا للجند، ومأوى لذويهم، ومستودعًا لذخائرهم، وقاعدة انطلاق لاستكمال فتح المنطقة، ونشر الإسلام بين سكانها، ومقر ولاة المسلمين، ومنارة للثقافة والعلم. (موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص٣٣).

(١٧٤) ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١.

(١٧٥) هشام جعيط، المرجع السابق، ١٦١.

(١٧٦) محمد زيتون، **القيروان ودوها الحضاري**، ص ١٨٦.

(١٧٧) أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي)، طبقات علماء إفريقية، ج ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص ٥٦ – المالكي رياض النفوس، ج ١ ـ ص ٧، ٨ – الدباغ، معالم الإيمان، ج ١، ص١٦٠.

(١٧٨) زيتون محمد، المرجع السابق، ص ١٩٦.

ومن أشهر الأفارقة الذين يمّموا جهة المشرق لتعلم أمور دينهم ثم عادوا لنشرها بين سكان المغرب، عبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري، وعبد الله بن فروخ الفارسي، والبهلول بن راشد، وعبد الله بن عمر بن غانم، وأسد بن الفرات، وأبو سعيد سحنون واضع كتاب المدونة. (انظر المالكي، **طبقات علماء إفريقية**، ج١، ص ١٥٢، ١٧٦، ٢٠٠، ٢١٥، ٢٥٤ – الدباغ، **معالم الإيمان**، ج١، ص٢٣٠، ٢٦٤، ٢٨٨، ج٢، ص٣، ٧٧. القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، ج٢، ضبطه وصححه سالم سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٤ ه/ ١٩٩٣م، ج ٤، ص ٤٥).

(١٧٩) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ٥٦.

(١٨٠) لقبال، المرجع السابق، ص ٣٤.

(١٨١) نفسه، ص ٦٩.

(١٨٢) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٩١.

(١٨٣) الدباغ، معالم الإيمان، ج ١، ص ٦٣.

(١٨٤) بن موسى، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(١٨٥) البكري، المصدر السابق، ص ٢٣.

(١٨٦) المالكي، المصدر السابق، ج ١، ص ٩٩ – ١١٧، الدباغ، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٦٤، ٢٨٨، ج ٢، ص ٣، ٧٧.

(١٨٧) حسن حسني عبد الوهاب، **بساط العقيق**، ص ٥٥.

(١٨٨) انظر **طبقات علماء إفريقية لأبي العرب**، ص ٨٤ – رياض النفوس للمالكي، ج ١، ص ٦٥ – معالم الإيمان للدباغ، ج١، ص ١٨٧.

(١٨٩) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٨٧.

(١٩٠) محمد حسن، المرجع السابق، ج ١، ص ٢١١.

(١٩١) البكري، المصدر السابق، ص ٢٥.

(١٩٢) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٥٣.

(١٩٣) الوضم هو كل شيء يوضع عليه اللحم ليقيه من الأرض، كالخشبة وغيرها (محمد عمارة، **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، ص ٦٢٥).

(١٩٤) المقدسي، المصدر السابق، ص ١١٠.

(١٩٥) البكري، المصدر السابق، ص ٢٦.

(١٩٦) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.

(١٩٧) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٩٣.

(١٩٨) أبو زمعة البلوي، من أصحاب الرسول (ﷺ)، ممن بايعه تحت الشجرة، دخل إفريقية وأقام بها واستشهد قرب القيروان سنة ٥٣٤/ ٦٥٤م. (المالكي، المصدر السابق، ج ١، ص ٨٤ – الدباغ، رياض النفوس، ج ١، ص ٩٧.

(١٩٩) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢٠٠) الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٧.

(٢٠١) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.

(٢٠٢) لمبار، المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(٢٠٣) الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٧.

(٢٠٤) **صبرة المنصورية**: مدينة قرب القيروان بناها إسماعيل العبيدي سنة (٣٣٧/٥٣٣٧م). كانت مداخيلها كبيرة، وهي منزل الولاة إلى حين خرابها. ونقلت أسواق القيروان وكل صناعاتها (البكري، المصدر السابق، ص١٧، الحميري، المصدر السابق، ص٣٥٥).

(٢٠٥) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٢٠٦) محمد حسن، المرجع السابق، ص ٢١١.

(٢٠٧) لمبار، المرجع السابق، ص ٢٠٨ – ٢٠٩.

(٢٠٨) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢٠٩) البكري، المصدر السابق، ص٧٢.

(٢١٠) **تهوذا**: من بلاد الزاب بالقرب من بسكرة، وهي مدينة قديمة بنيانها بالحجر الجليل، وعليها سور، ولها نهر كبير ينصب من جبل أوراس، وكثيرة البساتين والنخيل والزرع وجميع الثمار. وهي المدينة التي استشهد بها عقبة بن نافع (الحميري،

المصدر السابق، ص ١٤٢ – ١٤٣، الحموي – البكري، المصدر السابق، ص ٧٢ – ٧٤).

(٢١١) نفطة: من بلاد الجريد، بينها وبين توزر ٢٠ ميلاً، هي مدينة كبيرة، قديمة، كانت لها غابة كثيرة النخيل والبساتين وجميع الفواكه، وهي كثيرة الخصب. (البكري، المصدر السابق، ص ٣٨ – مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ١٥٦- ١٥٨– الحميري، المصدر السابق، ص ٥٧٨).

(٢١٢) البكري، المصدر السابق، ص ٤٦ – ٤٨.

(٢١٣) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٧٢.

(٢١٤) الجنحاني، المرجع السابق، ص١١١.

(215) Lewicki, Etudes maghrébines et soudanaises, Académie polonaise de science – comité des études orientales, Varsovie, 1976, p 12.

(٢١٦) البكري، المصدر السابق، ص ٧٤.

(٢١٧) لمبار، المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٢١٨) ابن الصغير، المصدر السابق، ص٣١.

(٢١٩) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٢٢٠) البكري، المصدر السابق، ص٧٤.

(٢٢١) ابن الصغير، المصدر السابق، ص٣٦.

(٢٢٢) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٨٦.

(٢٢٣) الحريري، المرجع السابق، ص١٤٩.

(٢٢٤) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٢٢٥) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٥٣.

(٢٢٦) نفسه.